fb/mashro3pdf

أحمد الملواني

وَرْدِية فراولة

fb/mashro3pdf

عن حمودة السكران عن علي شوكة عن أحمد همبكة عن سعيد الرماح عن عمرو النص أن مولانا ونبينا السلطان قال:

[العُلُو في القُوةِ.. والضَعفُ في الاستِعلاءِ.. فَوَيلٌ لِلمُتَعالينَ بِغيرِ قُوَّةٍ]

fb/mashro3pdf

بعد النهاية

عينان بهما صلابة لم يفهمها؛ وكأنما جدار حديدي منسوج بين الجفنين يمنع الناظر من التلصص إلى ما وراء التماع العين. كان معتادًا على قراءة الوجوه والنظرات، إلا ما يصدر عن تلكما العينين؛ نظراتهما تندفع نحو وجهه بقوة ووقاحة، حتى خيل إليه أنه يستشعر لها ثقلا على جلده.. وكأنما النظرات تضغطه، فتجبره هو على الإشاحة بوجهه إلى البعيد، على عكس ما خطط له، وبعكس كل ما تعلمه وتدرب عليه وخبره على مر السنوات.

من ناحيتنا، يمكن أن نقول إن المشكلة الحقيقية التي واجهت الضابط الشاب لحظتها كونه لم يتعلم ـ سواء في مرحلة التلقين النظرية أو في مرحلة الخبرة العملية ـ مواجهة النظرات. هو اعتاد أن تزوغ العيون أمام وقاحة عينيه، لا أن تبادله الوقاحة بأختها. ارتبك لهذا، ومع سابق علمه بطبيعة محدثه، بحكم خدمته في تلك المنطقة منذ ما يزيد عن السنوات الثلاث، أيقن أن مهمته تزداد عسرًا.

fb/mashro3pdf

مشكلته في تلك اللحظة، وفي هذا المنحنى تحديدًا من مسار الحوار، تكمن في كيفية مواجهة السلطان بشكوكه ـ المقاربة لليقين ـ حول كذبه. هو لا يصدق حرفا، ولكنه لا يعرف كيف يتعامل مع شخص بمثل قوة وغرور السلطان؛ فضلا عن أهميته الفائقة للدولة -وللداخلية تحديدًا- والتي تجعل من الصعب عليه إيذائه. السلطان ليس من هذا النوع الذي يمكن تهديده بالحبس، أو ممارسة أية ضغوط نفسية عليه.. والسلطان يعرف هذا، لهذا ربما سكن لكتبه تهكم واستخفاف بالضابط وبحديثه. السلطان لا يهاب؛ وكيف يهاب المدعوم بوحي من السماء؟! هو يعرف جيدًا أن محدثه كافر به، وربما حتى يظن أن نبوَّته محض تخاريف، ولكنه يدرك أيضًا أن هذا تحديدًا هو ما قيل عن كل الأنبياء، فلا يكترث له.

ـ يعني معقول انك ما تعرفش حاجة؟!

أجاب السلطان:

ـ ما أنا قُلت لك يا باشا.. أنا كنت في أجازة امبارح، وما شُفتش حاجة.. أنا بس جيت دلوقتي لما قالوا لي إن الدنيا مقلوبة في المصنع.. ومستعد (في هذه الجملة تحديدًا يمكن أن نلاحظ لكنة التهكم بمنتهى الوضوح) أجيب لك بدل الشاهد مليون.

ـ أنا مصدق إنك ما شُفتش.. أنا باسألك إن كنت تعرف حاجة.. فيه فرق بين انك تشوف وانك تعرف.

كانت كلمته كإعلان واضح بانتقال الحوار إلى إطار جديد..

fb/mashro3pdf

الآن هو لا يستجوب السلطان كمُتَّهم ـ لا سامحَ الله ـ ولا حتى كشاهد من موقع الجريمة، وإنما يسأله كمرشد ومصدر هام للمعلومات، يتحكم بمنطقة تتسع لتشمل ربع مساحة المدينة تقريبا، تمتد من المنطقة الصناعية المتاخمة للميناء شمالاً، وما يحدها من مناطق للإسكان الشعبي، إلى مناطق أكشاك الصفيح المشيدة لصق خط السكة الحديد جنوبًا.. ومن بيوت الصيادين الطينية المطلة على الملاحات غربًا، وحتى المناطق التي تعتبر أكثر رقيًا وثراء ـ ولو بشكل نسبي ـ شرقًا، والتي لا يفصلها عن مركز المدينة أكثر من ست أو سبع كيلو مترات.

ـ هو أنا لحقت أعرف حاجة؟! أنا زيي زيك يا باشا.. لسة جاي أعاين.. وأرفع البصمات.

قالها وضحك بخلاعة. أخرج من جيب الجاكيت الجلد الداخلي علبة سجائر تحمل شعار ماركة أمريكية، سحب منها سيجارة مد بها يد للضابط. في ظروف أخرى لم يكن ليقبلها، وربما كانت إجابته للدعوة بالثورة والسباب وذكر الوالدين بسوء؛ فلا يمكن لضابط شرطة في مرتبة باشا أن يمد يده متباسطًا ليأخذ سيجارة من أحد المواطنين في الشارع، وأمام نظرات الحاضرين. ولكن اليد الممدودة نحوه هي يد السلطان، فهل يجوز ردها أو إحراج صاحبها؟!.. دارت نظراته برعة في فناء المصنع.. لم يكن هناك سوى رجاله، ورجال المعمل الجنائي، ورجال الإسعاف. عبر البوابة المفتوحة كان يرى جمعًا من فتيات المصنع، وجوههن ملونة بين فضول، ونشيج، وصمت الصدمة. مد يده وأخذ السيجارة، أشعلها له السلطان..

fb/mashro3pdf

ـ لو تحب تسيب لي الموضوع ده ما عنديش مانع..

استعان بالصمت لثانية حتى أشعل سيجارته، ثم تابع:

ـ وكلها يوم ولا يومين وآجيلك المكتب أشرب عندك القهوة، وأحكي لك بالتفصيل إيه اللي حصل هنا.

fb/mashro3pdf

نهاية وردية

لحظتها، لم يكن في عقل جميل الساعي سوى تساؤل عن كيفية المغادرة قبل وصول الأستاذ خليل عبد الحافظ. حاول أن يسوق حجة ما لمدير المصنع، عساه يسمح له بالمغادرة ولو ربع الساعة مبكرًا عن موعد انصراف الوردية، ولكن علاقتهما المتوترة منذ فترة استدعت ـ بشكل استثنائي ـ حديثا عن اللوائح والقوانين، وضرورة الالتزام بمواعيد العمل، وكلمتين عن عجلة الإنتاج لم يفهم منهما جميل الساعي سوى استحالة أن يسمح له المدير بمغادرة مبكرة.

عقله المغيب، وجسده المتراخي لم يسعفاه بحل سوى الاختباء في الحمام عند بدء وصول عمال الوردية الأخيرة، حتى يستقر الأستاذ خليل في مكتبه، فيتسلل حينها من مخبئه إلى باب المصنع. فهو لم يكن بقادر على إيجاد أي مبرر يسوقه لرئيس وردية الليل حين يطالبه بالتموين اليومي. وقتها سيكون من العسير أن يشرح له مدى احتياجه المتقد منذ شهور لمضاجعة شادية؛ وحتى إن شرح له فلن يفهم الأستاذ خليل أو يقدِّر، فرئيس وردية الليل لم يعرف عنه يومًا عشقه للحريم، ولم يسل

fb/mashro3pdf

يومًا لعابه ـ على حد علمهم ـ على عاملات المصنع اللعوبات، ولا حتى عندما كان مجرد عامل بينهم. (على كل حال هم اعتادوا في المصنع أن يتحدثوا عن شبح علاقة مريبة تجمع الأستاذ خليل بصاحب الشركة، وأهم حيثيات ذلك اليقين، أن الأستاذ خليل لم يقرب أية فتاة في المصنع، ولا حتى بقرصة ـ معتادة كمزاح برئ ـ لثديها).

شادية تمتلك تلك المؤخرة التي تبدو -بألق الغواية- تدويرتها المشدودة من العباءة السوداء التي ترتديها، والتي اعتادت أن ترفع طرفها السفلي بقدر محسوب عند سيرها، فلا تتعثر قدماها في ذيلها الفضفاض، فتكشف للعينين الجائعتين بياض سمانتيها، بعكس باقي العاملات اللواتي يرتدين دائمًا أسفل ملابسهن بنطلونًا طويلا صيفًا أو شتاء. فتشتعل غريزة جميل الساعي، التي لا تجد في أغلب الأوقات عقلا واعيًا لكبح شطحاتها مع العاملات، في الحمام والزوايا المعتمة خلف سيارات اللوري الراكنة في فناء المصنع. خصلات الشعر ـ المذهب بالصبغة ـ النافرة من تحت حجابها أثارت جنونه طويلا، فما لفتاة مثلها ـ بلا زوج أو خطيب ـ أن تصبغ شعرها إلا لاستخدامه كسلاح قنص للذكور الشبقين، وعدم ارتدائها بنطلونًا تحت العباءة كان يشعل لهب خيالاته، فلا يقف حائلا بينه وبين مراده، سوى انحسار عباءة خفيفة. لذا، حاصرها طويلا وكله ثقة من أن رفضها ليس سوى تمنع لزيادة السعر.

لحظتها لم تفكر شادية في عواقب فعلتها، عندما شاهدت الأقراص الحمراء مصفوفة في شريط الدواء، كاملة بغير نقصان

fb/mashro3pdf

سوى من واحدة رفعها جميل الساعي على فمه وهو يغمز لها، مداعبا عضوه من فوق المقعد الخشبي، حيث اعتاد أن يسترخي ممددا كرشه في ركن منعزل بجوار دورة مياه الحريم. الأقراص أثارت لعابها، فوجدت فيها لأول مرة ثمنًا معقولا لتقبل لزُوجته وترجرج كرشه الضخم، والذي كثيرًا ما تهكمت عليه وهي ترد وسيطاته من العاملات، معلنة أنه ما من ثمن في الدنيا يجعلها تقبل أن يمتطيها ذلك الخنزير.

لم تكن تفكر، حين دعته بلمح العين لاتباعها إلى دورة المياه، سوى في شريط الدواء. فحين أدركها، ومد يديه يعتصر نهديها، نهرته وأقسمت ألا يمسها إلا بعد أن يمنحها شريط الفراولة. وقتها كل ما فكر فيه هو مدى تفاهة الثمن؛ فعقله المعطل بغوايتها لم يكن قادرًا لحظتها على حساب عواقب تبديد تموين الوردية الأخيرة.

كل ما كانت تفكر فيه شادية وهي في طريقها إلى البيت أن تسرع إلى إبراهيم، تعطيه شريط المخدر، وتراقب فرحته بهديتها. لن تخبره بالطبع إنها ضاجعت ساعيًا بالمصنع لتحضر له الشريط؛ وإن كانت في عمق بعيد عن عقلها الواعي، تعلم أن الأمر ربما لن يثير انتباهه حتى، ولكنها تحب أن تضعه في عقلها في صورة العاشق الغيور. كانت تتخيل كيف أنه سيرفع على الفور قرصين أو ثلاثة إلى فمه، ثم ينقض عليها فوق سطح بيته، ويلتهمها بعنف تحبه، على الأرض المدنسة ببقع من خراء الدجاج والبط. لن تتأفف منه كما تأففت من جميل الساعي، حين طلب منها أن تتمدد تحته على أرضية دورة المياه.. نهرته،

fb/mashro3pdf

وأخبرته أنها لن تضع جسدها على تلك الأرض القذرة، رغم إنها كانت تعلم أنه الوضع الوحيد الذي يتيحه له كرشه، إلا أنها هددته بالانصراف إن هو أصر؛ فإما أن يأخذها واقفة، ويتحمل هو مسئولية التعامل مع عقبة الكرش، أو ينسى الأمر.

في نهاية اليوم، ستعود شادية إلى بيتها سعيدة، مفككة الأوصال، مستمتعة بخدر لذيذ.. ستأكل لقمة، وتستمتع بانسياب الماء الساخن ـ تحبه ساخنا وليس دافئا ـ من الكوز فوق رأسها.

وسيعود جميل إلى بيته فرحًا بهروبه من الأستاذ خليل، ونجاته من المأزق. لن يفكر كثيرًا فيما قد يحدث غدًا. وسيقضي ليلته في إعادة ما دار اليوم في دورة مياه الحريم كتحقق حلم طالت مراوغته. ربما يدفعه رضاه عن الدنيا ساعتها لتناسي أزمة التقاء الكرشين الضخمين فيضاجع زوجته! وربما لا يفعل.

ولكن ما غاب عن إدراك جميل وشادية.. أن فعلتهما البسيطة، والتلقائية تلك، كانت كشرارة أولى، انطلقت لتدور بعدها عجلة الحريق الذي التهم كل ما في طريقه، وحتى تمام وقوع الكارثة.

fb/mashro3pdf

قبيل بداية وردية

سؤال شغل عقل خليل عبد الحافظ لدقائق طويلة، مراقصًا انعكاس توتر عينيه على زجاج ساعته: أيجب عليه أن يبلغ صاحب الشركة بذلك الوضع المقلق الذي يهدد سير العمل في وردية الليل، ويطلب منه المشورة؟

وردية الليل...

عندما طلب صاحب الشركة الجديد ـ شاب عابث ورثها عن أسلاف له شيدوها منذ عشرات السنين ـ الاجتماع بمدير المصنع، ليخبره بقرار إضافة وردية عمل ثالثة، تمتد من الحادية عشر مساءً وحتى السابعة صباحًا، حدثه طويلا عن حاجة العمل، وزيادة الطلب، ومضاعفة القدرة على المنافسة في ظل الاتجاه لفتح أسواق جديدة. الكلام لم يقنع مدير المصنع، ولا أيًا ممن حكى لهم ما كان بعد عودته من الاجتماع متفكهًا على صاحب الشركة الجالس في مكتبه المكيف في المركز الرئيسي الفخم، يتحدث بكلام الإنشاء مقروءً من ورقة صغيرة أمامه!

قديمًا، لم يكن هناك مركزًا رئيسيًا، ولا مكتبًا مكيفًا، يحمل بابه

fb/mashro3pdf

لافتة منقوشًا عليها بماء الذهب «السيد رئيس مجلس الإدارة».. قديمًا؛ في عهد الآباء المؤسين، لم يكن هناك سوى ذلك المصنع الصغير، وكان صاحبه لا يفارقه منذ لحظة دخول العامل الأول، وحتى لحظة مغادرة العامل الأخير. جعل لنفسه مكتبًا معلقًا في فضاء المصنع على أعمدة حديدية، ترفعه إلى قرب السقف العالي (وقتها كان السقف من الجمالون، قبل بنائه بالحديد المسلح والأسمنت في وقت لاحق) فلا يتوقف لحظة عن مراقبة العمال، وتوجيههم بالزعيق والسباب من الردهة المعلقة كشرفة ممتدة من السلم الحديدي، لتفضي إلى أبواب المكاتب الثلاثة المتلاصقة: المكتب الأول لصاحب المصنع، والثاني لمحاسب المصنع، والأخير لاثنين من الموظفين، أحدهما مسئول عن المخازن، والآخر عن التسويق.

اليوم تطورت الشركة وتشعبت ـ حدث هذا في عهد والد صاحب الشركة الحالي ـ والمصنع بات مصانع، خرجت من رحم ذلك المدفون في قلب منطقة شعبية، لتسكن المناطق الصناعية الكبرى في ضواحي المدينة، خاصة بعد أن غير الأب مجال العمل، ليدخل بمصانعه مجال صناعة البلاستيك، كتطور جديد ومجاراة أخيرة للزمن، ليتسع العمل وتتضخم الشركة، ويتم تأسيس ذلك المركز الرئيسي في منطقة راقية، ليضم الإدارة المركزية لجميع المصانع. ولكن يبقى مصنعنا الصغير كما هو، لم يزل ينتج، ولم يزل يخدم باقي المصانع بما يحتاجونه من البلاستيك المجروش كمادة خام لصناعاتهم.

عندما أصدر صاحب الشركة قرارًا رسميًا بإنشاء الوردية

fb/mashro3pdf

الجديدة، أتبعه بقرار آخر بتعيين خليل عبد الحافظ رئيسًا لها، بصلاحيات مدير المصنع خلال الساعات الثماني. حينها انكشفت الحيرة عن شك في منزلة يقين، بأن الوردية الثالثة إنما أنشئت خصيصًا لأجل خاطر خليل عبد الحافظ. وقتها تحدث مدير المصنع كثيرًا ـ وتبعه باقي العمال والموظفون ـ عن العلاقات المشبوهة التي تربط خليل بصاحب الشركة الجديد، منذ أن كان مجرد ولي عهد مراهق لا يأتي إلى المصنع سوى متأففًا في زيارات إجبارية، مغلفة بلعنات الأب المنهالة على رأس ابنه الأرعن قليل الرباية، فكان خليل ـ على حد تأكيدات مدير المصنع المدعومة بأيمان مغلظة، أغلبها أيمان طلاق ـ هو الوحيد القادر على تغيير مزاج البك الصغير بخدمات شتى، بلغت أحيانًا حد إيصال البنت المختارة من العاملات إلى سيارة البك أو إلى أية حجرة خالية من حجرات الإدارة.

ويجب هنا أن نوضح أن هذه الأفعال، التي يتناولها العاملون والموظفون ومديرهم بقدر من الاحتقار، في الحقيقة هي السبب في فتح بيوتهم حتى الآن. فمنذ أن بدأ عقل الشاب المراهق يكوّن وعيًا خاصًا به، ومنذ أن كان يدور في المصانع في أعقاب والده، وهو لا يفهم الجدوى من إصرار الوالد على الاحتفاظ بهذا المصنع الصغير بماكيناته العتيقة، في قلب منطقة شعبية يتأفف بمجرد أن يُذكر أمامه اسمها، في حين أن المصانع الثلاث الأخرى تدر عليهم ربحًا لا يستطيعون حتى إحصائه. وربما كان القرار الأول لصاحب الشركة الحالي بعد موت والده سيكون قرارًا بغلق المصنع وتسريح عماله، لولا الأستاذ خليل، الذي

fb/mashro3pdf

أراه كيف أن هذا المصنع هو في الحقيقة منجم لا ينضب لفتيات من نوع جديد، بات صاحب الشركة يعشقه. ربما هو الملل من فتيات المجتمع الراقي، وعاهرات الدرجة الأولى، وربما هي غريزة حيوانية ما نامت في أعماقه قرونًا، ثم استيقظت عندما صدمت أنفه رائحة العرق النتن لأول مرة وهو يضاجع تلك الفتاة من المصنع، بدلا من رائحة البارفانات الفاخرة التي اعتادها تتصاعد من النائمات تحته. أو ربما لحظة أن لعق بلسانه رقبة فتاة أخرى، ليمتلئ فمه بطعم مرارة، ويسعل بفعل تراب تسلل إلى حلقه. لفترة بات هذا النوع من الفتيات هو المفضل لديه، ولهذا فقط لم يشأ أن يغلق المصنع القديم.

تصاعدت اتهامات مدير المصنع، وتحول الهمس إلى زعيق فاضح، عندما تجاهله صاحب الشركة، وأرسل مباشرة للأستاذ خليل لبحث تنسيق العمل في الوردية معه. ثم اختص بعدها الأستاذ خليل دون غيره بمسئولية اختيار العمال الذين سيترأسهم.

ما لا يعرفه أحد.. وما كان يمكن أن يصبح قضية جديدة تدين تصرفات الأستاذ خليل وصاحب الشركة، وأغنية يتغنى بها مدير المصنع وسط مرؤوسيه، في حفلات أكل لحم خليل عبد الحافظ، مبررًا القفزة المهنية ـ غير المحببة لنفسه ـ التي قطعها هذا العامل (في حديث كهذا، كان مدير المصنع ينطق كلمة «عامل» بكثير من التحقير)؛ أن خليل كانت لديه خطة بسيطة صارح بها صاحب الشركة، في واحد من اجتماعاتهما التنسيقية.. ما تحتاجه وردية الليل في بدايتها هو إقبال من العمال

fb/mashro3pdf

على تشغيلها. عمال لديهم من الحماس والطاقة ما يجعل إنتاجية تلك الوردية لا تقل عن شقيقتيها، ويجعل ثمة جدوى ملحوظة وفائدة معممة (هكذا نطقها خليل في خطابه لصاحب المصنع!) من تكلفة تشغيل المصنع لأربع وعشرين ساعة بلا توقف.

وكان لخليل بعد نظر، ساهم في تعلق صاحب الشركة به وبخدماته، فقد جعلت خطته ـ على بساطتها ـ من وردية الليل، الوردية الأكثر إنتاجية في المصنع بالفعل، برغم تردد صاحب الشركة طويلا في قبولها؛ فالخطة البسيطة كانت تعتمد على الفراولة.

الفراولة...

لا يمكن أن يختلف اثنان من متعاطي حبوب الترامادول الحمراء ـ التي يدللها المتعاطون باسم: الفراولة ـ على تأثيرها السحري الناجح دائمًا على مد الجسم بالطاقة. ما قاله خليل عبد الحافظ لصاحب الشركة يومها، وهو يخلط قطعة الحشيش المفروكة بتبغ السجائر، في واحد من اجتماعاتهما بحجرة مجلس الإدارة..

ـ الفراولة هتخلي العمال يشتغلوا زي الحمير.

والأهم أنها ستجذب العمال لتلك الوردية المتأخرة..

ـ كفاية بس تشيع بين العمال إن الإدارة هتوزع فراولة مجانًا على عمال وردية الليل..

fb/mashro3pdf

ولكن صاحب الشركة رفض فكرة الإشاعة، وطلب من الأستاذ خليل ألا يتعدى نطاق العلم بهذا الأمر حدود العمال الذين يختارهم بنفسه، وعلى مسئوليته..

ـ خليل.. انا ما ليش دعوة بالموضوع ده.. اعمل إللي انت عايزه بعيد عني.

انتهى الاتفاق إلى تحمل ميزانية الشركة نفقات هذا التموين (وكانت تلك هي أول مرة يطلق فيها مسمى «التموين» على عماية إمداد عمال الوردية بالفراولة) تحت أي مسمى يتم تلفيقه بمعرفة الأستاذ خليل، الذي سيتولى بالتالي مسئولية جلب المخدر في سرية تامة، وبمنأى تام عن صاحب الشركة، فأمام الجميع ـ وحتى بينهما وبين بعضهما ـ هو لا شأن له بهذا الأمر. ذلك التعهد الذي قطعه خليل عبد الحافظ على نفسه يومها ـ طامعًا في كسب الباقي من ثقة صاحب الشركة ـ هو ما يعوقه الآن عن الاتصال به طلبًا لمشورته في هذا الموقف الاستثنائي.

* * *

موعد بداية الوردية اقترب، ولم يظهر جميل الساعي بعد. والألعن أن هاتفه مغلق، والألعن والألعن أن رمضان بلية قال للأستاذ خليل ـ متطوعًا ـ إنه شاهد جميل الساعي يخرج متسحبًا من بوابة الشركة، بعد دقائق قليلة من قدومه. الشواهد كلها إذن تؤكد أن جميل قد بدد العهدة، ربما باع شريط الدواء، أو حتى

fb/mashro3pdf

تعاطاه كله. في ثورته لم يحاول الأستاذ خليل إجهاد عقله بتخيل ما حدث، كان يسب الأديان، ويلعن أبا وأم جميل، وحتى الداية التي ولّدت أمه، وهو الذي لم يقصر معه في شيء، وكان يسمح له ببرشامة كاملة من التموين اليومي رغم أنه ليس من عمال الوردية، وإنما لكونه طباخ السم. لم يهتم الأستاذ خليل بسبب غياب جميل الساعي ـ أو هروبه إذا ما صدقت كلمات رمضان بلية، وهي في الغالب صادقة ـ فقد أصدر بالفعل حكمه في القضية، وأقسم قسم الحرام من الدين، أن يكون اليوم هو آخر يوم لجميل الساعي في المصنع.

من مكتبه ـ نفس مكتب المالك الأول للمصنع ـ ومن وراء الجدار الزجاجي، كان بمقدور ببصره أن يجول في كل الأركان. من هذا الارتفاع المقدر بدقة ليكشف كامل مساحة المصنع، كان بإمكانه أن يرى ما وراء كل ماكينة، وما يكمن في كل ركن، وحتى الركن المنزوي تحت السلم المعدني ـ حيث باب دورة مياه النساء ـ كان بإمكانه، إن مال ببصره بزاوية معينة، أن يكشف جزءً معقولا منه عبر المسافات الواسعة بين درجات السلم المعدنية، الصاعدة إلى مكاتب الإدارة المعلقة في فضاء المصنع، على أعمدة صلب، تفتح أبوابها على ردهة لها جدار واطئ، كشرفة معدنية تطل على قلب المصنع، قديما ـ كما سمع ـ كان ملاك المصنع المؤسسين، يستخدمونها للإشراف على حركة العمل. ولكن في وقت ليس ببعيد، وبعد إضافة الجدار الزجاجي لحجرة مكتب المدير، ما عادت من حاجة لاستخدام الشرفة، وبات بمقدور المدير متابعة العمل دون أن يغادر مكتبه. كان يحب وقفته

fb/mashro3pdf

هنـاك مراقبًـا، شـابكًا كفيـه وراء ظهـره، فـاردًا قامتـه، مسـتمتعًا برؤيـة الطاقـة والحماسـة في أجسـاد العاملـين وتحركاتهـم، فـيرضى عـن نفسـه، وعـن حسـن إدارتـه. الآن هـو يقـف في ذات الموضـع، وبنفـس الكيفيـة، ولكـن ليراقـب قـدوم عـمال الورديـة واحـدًا تلـو الآخـر، قبيـل دقائـق مـن بدايتهـا. يتأملهـم وهـم يبدلـون ملابسـهم ويتمازحـون، ويحـترق عقلـه بسـؤال عـن التـصرف الملائـم الآن. كيف سـيكون تقبلهـم للوضـع إن علمـوا أن الليلـة بـلا تمويـن؟! عندمـا رأى أول العـمال يصعـد السـلم المعـدني، أدرك أن أمامـه لحظـات ويكتمـل تجمـع العـمال في الردهـة أمـام بـاب المكتـب للحصـول عـلى نصيبهـم مـن التمويـن، بعـد التوقيـع في كشـف الحضـور، وتـرك هواتفهـم المحمولـة في مكتبـه، كـما يقتـضي القانـون الـذي وضعـه بنفسـه (حرصًـا عـلى سـلامـة سـير العمـل.. كـما كتـب بخـط يـده في المنشـور الـذي وضعـه عـلى بـاب مكتبـه بهـذا القانـون). لحظتهـا فكـر: لمـاذا لا يمنـح أي منهـم نقـودًا ليذهـب سريعًـا لـشراء شريـط برشـام جديـد؟ هـو يعلـم أن المنطقـة الشـعبية القائـم المصنـع في قلبهـا، متخمـة بتجـار المخـدرات بـكل أنواعهـا. ولكـن عقـل المديـر ـ والـذي اسـتبدله منـذ فـترة بعقـل العامـل الـذي كان عليـه ـ أنبـأه أن هـذا أمـر يعتـبر فيـه تباسـطًا غـير محبـب مـع العـمال، فهـو في النهايـة ـ حتـى وإن كان إلى وقـت قريـب واحـد منهـم ـ رئيسـهم، ويجـب أن يحافـظ عـلى متطلبـات تلـك العلاقـة. ولكـن تفكـيره في هـذه النقطـة قـاده فـورًا إلى اسـم مـن يمكـن اعتبـاره الأمـل الوحيـد.. السـلطان.

fb/mashro3pdf

عندما حصل في سن مراهقته على الصيت، سماه أهل الحي: حمادة السلطان. حيلة لغوية بسيطة حولت اسم أبيه «سلطان» إلى لقب ذو مهابة، بإضافة «ال» التعريف. وفي وقت لاحق، وفي إطار ضيق من الأتباع المخلصين، سيسبق اسمه لقب جديد، وهو «مولانا»، ليصبح اسمه بين رجاله: مولانا حمادة السلطان، وسيتم اختصاره أحيانًا إلى: مولانا السلطان. وهو اسم ينطق بمهابة وتقديس. وبنفس المهابة والقدسية، سيتحول اسمه على ألسنة أعدائه إلى «إللي ما يتسماش».

قبل أن يحصل على الصيت، كان ينادى ـ كما كل من اسمهم محمد ـ حمادة. وفي وقت لاحق، وبين أصدقائه وأبناء جيله، أضاف هو إلى اسمه لقب «بركان». ليصبح اسمه: حمادة بركان. ولكن في قرارة نفسه كان واثقا من عدم استحقاقه لهذا اللقب بعد. فهو ما فعل سوى أن حاول اكتساب الصيت باسم عمه مصطفى بركان، أحد أشرس وأخطر رجال المنطقة.

قد يعتقد البعض ـ بنظرة قاصرة ـ أن العم مصطفى بركان إنما يمثل نموذجًا لذلك الشخص الاستثنائي الذي يخرج شاذًا من أسرة محترمة بعيدة عن المشاكل وأعمال البلطجة. ولكن الحقيقة أن مصطفى بركان، ذا القوة والمهابة في نفوس أهالي المنطقة، لم يكن يقل احترامًا وخلقا حسنًا عن باقي أسرته، وإنما هو (كما قال مرة أمام عيني حمادة ابن أخيه المتطلعتين شوقًا لمنزلة مشابهة)..

fb/mashro3pdf

ـ طريق ما كانش ينفع ما أمشيش فيه.. سكة اختارتني.. مش أنا إللي اخترتها.

كثيرًا ما تمنى حمادة في طفولته أن يحل عمه محل والده الموظف المحترم (اعتاد حمادة السلطان في صغره أن ينطقها باحتقار وكأنها سبة). العم كان هو المثل الأعلى؛ ليس ذلك المثل الذي يسعى حمادة المراهق لبلوغه، وإنما ذلك الذي يسعى لتخطيه.

مصطفى بركان كان قويًا، شرسًا في العراك، مخيفًا.. برغم هذا لم يعرف عنه يومًا ممارسة أي نشاط إجرامي، ولا حتى أعمال البلطجة التي يعتبرها البعض تجارة حلال، حين تؤجر قوتك وشجاعتك مقابل المال. برغم كل شيء، وبرغم صيته في المنطقة والمناطق المجاورة، كان ملتزمًا أخلاقيًا، ملتزمًا بعمله في ذات المصنع الذي يعمل فيه الآن ابن أخيه. منتهاه في الانحراف لا يتعدى تدخين الحشيش، وربما شرب الخمر في المناسبات، وتحت إلحاح شديد من مجالسيه.. ومرة واحدة في صغره جرب البودرة، ولم يعاودها أبدًا. يعتبر من جيل آمن بالفعل ـ كما يردد دائمًا ـ أن الرجولة..

ـ أدب.. مش وساخة، وقلة دين.

لهذا استهان به الكثيرون، واعتبروا ـ لما رأوه ـ أن ما يحكى عنه محض أساطير تافهة، ومبالغات لإخافة الأطفال، فما يبدو على هيئة مصطفى بركان وتصرفاته لا يضعه سوى في تصنيف الأفندية، أو الفرافير (بلغة قديمة)، أو من يسمون (بلغة أكثر حداثة) «الطياز»!. ومن هنا تكون المفاجأة التي تكفي وحدها للقضاء على كل من جرب الاعتداء عليه، فما هذا المظهر

fb/mashro3pdf

الخادع سوى قشرة واهية، سرعان ما تنفجر في لحظات الخطر أو الغضب عن شراسة وقوة عاتية. سعداء الحظ الذين شهدوا بأعينهم لحظة من لحظات انفجاره حاولوا تشبيهها وهم يحكون عنها لمن لم يرها، ولكنهم عجزوا عن إيجاد الوصف الملائم، عدا ذلك الشاب الذي كان زبونًا دائمًا للأفلام الأمريكية في سينيمات الدرجة الثالثة، قال لهم إن لحظة الانفجار تلك..

ـ عاملة زي انفجار البركان.

صدقوا جميعًا على كلمته، حتى أولئك الذين لا يعرفون ما المقصود بهذا البركان، ومن هنا أتى لقبه.

حمادة ـ وبرغم عشقه للعم ـ لم يلتزم منذ صغره بقواعد الرجولة والشرف البالية التي آمن بها عمه. كان يتعامل مع نصائح العم، وكلماته عن معاني الرجولة، وكأنها حديث يتمي لرهافة أنثوية أصابت الجل في كبره. سبب هذا الخلاف ربما كان ساكنًا في اختلاف الأجيال، وربما لأن قواعد اللعبة اختلفت، وشروط صناعة الصيت المخيف ازدادت تعقيدًا. لهذا ربما ـ وربما احتياجًا للمال كذلك ـ جرب السلطان منذ صغره السرقة، وتجارة المخدرات، والبلطجة، مع ممارسة قدر ملحوظ من العنف الزائد في الخناقات. كانت تسعده الفترات التي يقضيها في حجز القسم، فمظهر المشاغب الخارج عن القانون له مهابته وضرورته في عالم المراهقين الساكنين تلك المجاهل. مقتضيات الزمن أجبرت النموذج الذي يمثله العم على التراجع، نموذج الفتوة الطيب، خليط العنف والجدعنة ما عاد عملة رائجة، الناس الآن تخاف ولا تحترم، تخاف من الصوت

fb/mashro3pdf

الأجش واللسان البذيء والعينين المخدرتين، والمطواة المفتوحة دائمًا.. وكل هذا كان يسعى حمادة لامتلاكه. باختصار، كان يريد قوة العم، مضافًا إليها مكونات الزمن الحاضر. فقط ما زالت تنقصه الخطوة الأكثر أهمية، فالقانون غير المكتوب يخبر أن أسرع وأضمن وسيلة للحصول على الصيت المخيف هي أن تهزم في عراك من هو أكثر صيتا منك. باختصار، كان عليه أن يضرب واحدًا من جبابرة الحي علقة تأخذ اسمه وتطير به على كل الآذان والألسنة؛ ولفرط طموحه، وقع اختياره على أكثرهم قوة ومهابة؛ عمه مصطفى بركان!

حمادة كاد أن يغادر سنوات مراهقته ـ وقد اكتمل في وجهه نمو الشارب، ليتحول من ذلك الخط الشبحي، إلى خط واضح السواد، له كثافة محببة ـ وهو لم يزل يبحث عن إجابة لمعضلة حياته: كيف يمكنه أن يشعل الأمور بينه وبين عمه إلى حد العراك؟ كثير من التحفز والصبر استنفذهما، تاركًا للأيام مهمة مفاجأته بتدبير تلقيه عرضًا في طريقه. عمه تربطه علاقة وثيقة بأبيه؛ يتشاركان السكنى في بيت العائلة، كل في شقة منفصلة. مصطفى بركان المخيف كان أمام أخيه الأكبر بوجه آخر؛ الطريق هنا مسدود في وجه الابن المراهق. من ناحية الزوجات يبقى الأمر مماثلا، فزوجة عمه تعتبر سلفتها أختا كبيرة، لا مجال لأي من تلك التفاهات التي قد تخرب عائلات، كخناقة بسبب تنقيط الغسيل أو تنفيض السجاجيد. أبناء عمه أطفال ما زالوا، ليسوا أندادًا له لكي يعبر إلى عمه عن طريقهم (للأمانة فقط يمكن أن نخبركم عن لحظة عارضة ـ وتحت تأثير ليلة سكر

fb/mashro3pdf

طويلة ـ زارت رأسه فكرة أن يغتصب واحدًا من أطفال عمه، كنوع من التحدي والاستهزاء في نفس الوقت، ولكن ـ لحسن الحظ ـ نسي الفكرة بحلول الصباح). الأمور كلها تتجه إذن إلى أن يفتعل العراك بنفسه. أوقات ـ تحت تأثير البراندي الرديء ـ كان يفكر في مدى معقولية بحثه طوال هذا الوقت عن سبب للعراك! لماذا لا ينقض عليه ـ ببساطة ـ بمجرد أن يراه؟ في النهاية ستبقى النتيجة واحدة؛ سيكون هو أول من يضرب مصطفى بركان، وسيحصل على الصيت الذي يرجوه، وسيعبر اسمه حدود الحي إلى المناطق المجاورة على أطراف الألسنة المبهورة، وسيبلغ كل منطقة سبقه إليها صيت عمه. كان يسمعهم بأذن الخيال ـ والخمر يدفعه للضحك ببلاهة ـ يقولون:

ـ حمادة بركان ضرب مصطفى بركان..

(يتغير الفعل أحيانا في هذه الجملة حسب درجة سكره، إلى «فشخ» أو «ناك») فكانت تطربه الجملة. حتى كانت تلك الليلة، حيث كان ـ وفي مفارقة نادرة ـ البراندي أكثر جودة، شرع في التنفيذ.

غادر جلسة الصحاب قبل نهايتها متجهًا إلى بيته، وفي نيته أن يتجاهل شقته في الطابق الأول، ويواصل الصعود إلى حيث شقة عمه. يعرف أن التقدم في السن والالتزام في العمل حولا عمه لدجاجة تأوي إلى عشها مع بواكير الليل. سيجده وقد غيب النوم عقله. يتخيله وهو يفتح له الباب قلقا من طرقات تلك الساعة المتأخرة، سيكون منكوش الشعر، نصف مغمض العين، مضطربًا ربما؛ وستكون تلك هي الفرصة التي لا تعوض. كل

fb/mashro3pdf

خطوة يقطعها كان يتحسس بعدها مؤخرته مطمئنًا على مستقر مطواه. كان يفكر في شكل الإصابة التي يمكن أن يحدثها في جسد عمه. كان ـ للأمانة ـ مترددًا بشأن ضرورة إصابة عمه في وجهه. إصابة الوجه تحدث دويًا وصيتًا أكبر، فشهرة من يضرب مصطفى بركان لا تساويها ـ بكل تأكيد ـ شهرة من يترك علامة على وجهه. ولكن إصابة الوجه لا تغتفر، وفي النهاية هو عمه، وهو برغم كل شيء، لم يتخل بعد عن حبه له، فالأمر، في عقل المراهق ذي الطموح، ليس أكثر من مجرد عمل. وكأي عمل ناجح، لا مجال فيه للمشاعر.

بلغ مدخل حارتهم الخالية في ليلة شتوية، وخياله يراقصه لم يزل، وشجاعة الخمر تشعل جسده، وتغيب عقله وراء نشوة قرب تحقق المراد. لم يبال بجمع معتاد لشلة من الشباب على ناصية الحارة، يعرفهم جيدًا بحكم الجيرة، وإن لم يكن منهم من صادقه يومًا، أو حتى عاركه؛ مجرد أنداد في سنه موجودون في ذات المكان، وهذا يكفي لكي يكرههم، ففي هذا العالم من ليس صديقي فهو عدوي المحتمل! خاصة وكلهم يسعون لذات الهدف: القوة والسيطرة. لذا لم يلتفت حتى لإلقاء السلام.. مر بهم منقادًا بخطى الهرولة وراء عزمه، لولا أن أدركته صيحة خشنة من أحدهم تقصده بسبة طالت رجولته. أجفل ناحيتهم.. لم يكد يلمح الغضب في أعينهم، حتى كرر أحدهم التطاول، فكان من نصيب أمه هذه المرة. لم يفهم سببًا لما يحدث سوى أن ما خشيه طوال السنين قد وقع بالفعل، وكشفوا له وجه الكراهية، الآن، وهو سكران ووحيد، بلا صديق واحد من شلته، يظنونه صيدًا

fb/mashro3pdf

يسيرًا. رد السباب على رؤوسهم، وبفعل غريزي كانت المطواة مفتوحة في يده برعة قد لا يستطيع المشاهد غير المتمرس إدراكها. المفارقة أن من ضمن ما قاله ـ بل ومن أبرز ما قاله ـ لهم:

ـ أنا عمي مصطفى بركان يا ولاد الشرموطة.

وهذا يؤكد ما قلناه منذ قليل، فحتى وهو في طريقه للاعتداء على عمه، لم يزل يحبه ويفتخر به، ويلجأ لسيرته في اللحظات الحرجة. لم يستطع أن يواصل مسيرة العراك لأبعد من هذا، فقد طالته أياديهم لحظتها، وكأي كثرة مكتوب لها ـ أبدًا ـ أن تهزم الشجاعة، وإن كانت مؤيدة بشجاعة الخمر. لم يختبر من قبل الضرب بكل هذا العنف والغل. فهم لحظتها معنى «علقة موت»، لم يجد لحظة واحدة ليمد فيها ولو إصبع نحو أحدهم.. وفي النهاية، كان الغرق في بركة دم على أسفلت قذر.

حمادة -على صغر سنه- كان يملك من عراك الدنيا رصيدًا كافيًا لكي يتطور عقله وقدرته على الاستنتاج بشكل جيد. لذا، طوال فترة رقاده في المستشفى ـ وفي البيت بعدها ـ كان يشكل على مهل خطوطا محددة لما حدث، فلم تفاجئه الأيام لاحقا حين أكدت له صحة استنتاجه. مصطفى بركان جاوز الخمسين، وتبدلت الأحوال في المنطقة ـ كما تبدلت في جسده ـ نحو الانحدار. العيال كفوا عن التبول في سراويلهم، كبروا وباتت لهم شوارب وعضلات وخشونة في الصوت، وأكسبهم خدر البرشام فمًا معوجًا ناحية اليمين كما يحبونه. ومصطفى بركان يراها في عيونهم؛ يراها تتشكل كما كانت تتشكل في عينيه

fb/mashro3pdf

وعيون أترابه، حين كانوا في مثل أعمار المراهقة تلك.. الرغبة في الصيت. كان يقرأ في عمق عيونهم تحفزًا. ينظرون إليه كفريسة سهلة؛ أسد عجوز حان وقت طرده والاستيلاء على قطيعه. قانون قد يكون هو ذاته قانون الغاب، ولكنه قانونهم على كل حال ووجب احترامه. يعلم يقينا أنها مسافة سنوات قليلة ـ أو ربما أشهر، حسب سرعة نمو شجاعة وغطرسة أولئك المراهقين ـ ثم سيضطر للاختباء.. لن يقدر على تلك القعدة الطاووسية الواثقة في صدر المقهى، لن يتبرع بالتدخل كلما اعتدى على جار له أحد من سكان المناطق المجاورة، لن يجرؤ حتى على إخراج تلك الشخطة المخيفة من حنجرته لإيقاف أي عراك ينشب بين شباب المنطقة. سيصبح كما أي عجوز، يسير على مهل لصق الجدران. ولكنه كان يخشى بطش القريب لا البعيد؛ فللخيانة قوة مدمرة تصعب مواجهتها. لذا، لم يعرف الخوف طريقه إلى قلبه إلا حين رآها في عيني ابن أخيه. عرف أن الغدر يتمطأ متهيئا، وأن المعركة لن تكون نظيفة. منذ فترة ـ تحسبًا ليوم كهذا ـ اختار بعناية عددًا من شباب المنطقة وقربهم إليه كما لم يفعل من قبل. احتواهم في مجلسه، أغدق عليهم بالحماية وتكاليف السهر والمزاج، حولهم لعصابة صغيرة يترأسها، لا يعلم تحديدًا الغرض منها، ولكنه كان يفكر في إمكانية أن يكونوا له سندًا حين يخذله العمر، ويحاول العيال إخضاعه. لم يتخيل أن يستخدمهم ضد ابن أخيه، حمادة تحديدًا، الذي طالما اعتبره ابنًا لم ينجبه؛ ولكنه أقنع نفسه بأن حتى الأب قد يحتاج أحيانا في تأديب ابنه إلى بعض القسوة؛ ولأنه أكد على صبيانه أن يتجنبوا أية إصابات قد

fb/mashro3pdf

تحدث إعاقة أو تشوهًا، وبرغم أنهم التزموا بأمره، إلا أن جزعه كان حقيقيًا، حين شاهد الجسد الممزق داخل اللفافات الطبية المدماة، فوق سرير مستشفى التأمين.

حمادة لم ينخدع بالحزن والجزع المصاحبين لملامح عمه. واثق أن العم وراء ما حدث. المنطقة كلها تتحدث عن هؤلاء الشبان بوصفهم رجال مصطفى بركان. يعرف أن وساطة عمه بين أبيه وبين آباء المعتدين للصلح، لم تكن ـ كما ادعى العم ـ بحكم الجيرة والعشرة التي لا يجب أن تفسدها مشاكل العيال. كان واثقا من أن ثمن الصلح الذي دفعه أهالي الشبان ـ في شكل الكفالة بمصاريف العلاج، زائد القليل ـ إنما هي أموال عمه نفسه. وبرغم تلك الأفكار، كان سعيدًا، فقد تحرر أخيرًا من معضلة البحث عن مبرر للعراك. الآن المعركة بدأت بالفعل، والجميل أنه ليس هو بادئها.

انتظر أعوامًا حتى استعاد قوة الجسد. ومع تمام الشفاء وعودته للحياة، فوجئ أن أعوام الانتظار لم تكن حقيقة سوى أيام! لم يأبه بالسلامات، ولا تهاني الشفاء. هو لم يؤخر عودته للشارع لكي يقيس غلاوته عند الأصدقاء، وإنما ليضمن جاهزيته بمجرد أن تطأ قدماه الأسفلت البالي. لا يجب أن تنتظر المواجهة يومًا آخر. الغضب أكسبه شجاعة فاقت شجاعة الخمر. شن هجومه في ضوء النهار، وفي قلب مجلس عمه مع الأصدقاء على المقهى. لم يستدع المطواة من جيب البنطلون؛ التقط حجرًا في حجم كف اليد، وقبل أن يدرك أحد ما يجري، كانت انقضاضته بقفزة من قلب الشارع إلى نافوخ عمه، بالكف

fb/mashro3pdf

القابض على الحجر. الدماء التي تفجرت، والجسد المديد الذي خر بين يديه، لم تمنعاه من أن يطلق اليد المتسلحة بالحجر مرة أخرى في وجه عمه هذه المرة، ليسقطه عن كرسيه إلى الأرض. لحظتها لمح التأهب في الأجساد المحيطة، التي قاربت الصحو من دهشتها. قدر أنه وقت للاستعانة بالسلاح. أخرج مطواته ووضعها على رقبة عمه، وهو يجر الجسد الهامد من تلابيبه إلى منتصف الشارع الضيق. جنون الغضب في عينيه ـ وليس فقط المطواة المتوعدة ـ أجبر الجميع على التأني قبل التدخل في العراك، فليس كل من يحمل مطواة مفتوحة يسعى ـ أو يقدر على ـ ما هو أكثر من التهويش؛ هكذا يقول قانونهم غير المكتوب. ولكن من يملك نظرة كتلك في عينيه، قد يصل استعداده إلى حد الذبح بالفعل كما يهدد. لذا اكتفى الجميع بالإنصات إلى صرخاته العصبية وهو يشرح لهم أن عمه هذا (قالها مصحوبة بعلامة دامية رسمتها المطواة في كتف عمه كإشارة) هو من سلط عليه صبيانه لقتله، وأعلن أمام الجمع تبرؤه منه، ووقع إعلانه بجرح آخر رسمه في ذراع العم. حتى أبوه لم يجرؤ على التدخل سوى بصيحة كسيحة..

ـ عيب يا ولد.

وحد الجميع إدراكٌ حكمته خبرتهم بألاعيب الشارع، أنهم يشهدون للحظتهم ميلاد كابوس جديد؛ كابوس سيسمونه قريبا «السلطان».

لم يجد السلطان ـ بعد أن بات قاهر مصطفى بركان ـ صعوبة في أن يستجمع ولاء أصدقائه وبأسهم، للثأر من صبيان عمه.

fb/mashro3pdf

يُحكى في المنطقة كلها ـ كما تروى ملاحم الأبطال ـ أن السلطان ورفقاءه ربطوا صبيان عمه، كل في دراجة بخارية عرايا، وجالوا بهم ـ مسحولين ـ شوارع وحواري المنطقة كلها. لم تفلح وساطة الكبراء أو البلاغات التي انهالت على قسم الشرطة في دفع السلطان للعفو عنهم. الأحداث بعدها دفعت نفسها نحو تطور خطير.. واحد من أشبال مصطفى بركان هؤلاء كان من سكان أكشاك الصفيح. حمادة وأترابه ـ وحتى أجيال سبقتهم ـ نشأوا في تلك المنطقة الشعبية الخطرة، والمليئة بالمجرمين، وبرغم هذا تربوا على تحذيرات أبائهم من خطورة الاقتراب من أكشاك الصفيح. في حكايات الأمهات والجدات، يظهر دائمًا سكان الصفيح كبديل حتمي للغيلان والأربعين حرامي والساحرات الشريرات. هنا الأطفال يتعلمون مع الرضعات الأولى الخوف من سكان الصفيح. عزبة الصفيح مكان يأوي الهاربين من أحكام الإعدام والمؤبد، سفاحين وتجار مخدرات ومغتصبي أطفال، تشكيلة مميزة شيدت هذه المنطقة التي يقوم اقتصادها على الدعارة والمخدرات. كان بمقدور السلطان وهو طفل -حين كان يمر بجوار منطقة الأكشاك- أن يرى على مداخل الحارات الضيقة النسوة جالسات بجلابيب قصيرة، رفعوها عمدا لتنحسر عن أفاخذهن المتباعدة، لتكشف بضاعتهن الباثسة للمارين. مرة، وكان السلطان لم يزل يذهب بضغط الأم إلى مدرسته الابتدائية، كان يحفر بقدميه تراب الأرض متشبثا، وهي تجره جرًا من يديه إلى المدرسة، حينما مرا بجوار الأكشاك، وكانت تلك الجثة المذبوحة ملقاة في كوم القمامة على حدود المنطقة. صرخت أمه، وخطفت

fb/mashro3pdf

جسده الصغير على كتفها، وركضت به ما بقي من طريق. ولكن الطفل الذي افتن لما رآه، سرعان ما فر من المدرسة بعد الحصة الأولى، وعاد الطريق ليلقي نظرة أخرى على الجثة. لم يجدها في مكانها، التفت حوله، فرأى ذلك الرجل يسقطها في حفرة صنعها أمام الكشك الذي يسكنه. الرجل لاحظ نظرات السلطان إليه، فابتسم بفم خال من الأسنان وقال:

ـ بتبص على إيه يا ابن الوسخة.. انت مش عارف إن إكرام الميت دفنه؟

والآن، السلطان متهم بضرب وإهانة شاب من سكان تلك المنطقة، وهو الاتهام الذي سيطول منطقته كلها، حينما يزورهم سكان الصفيح طلبًا للثأر. الكبار ارتجفوا، وحتى أولي البأس منهم صبوا اللعنات على رأس السلطان لمّا عرفوا؛ ولكن الشاب الصغير اتهمهم بالجبن، وأمرهم بالثبات. الدفاع عن المنطقة واجب وليس اختيار، من لم يستطع أن يحمل سلاحًا، دفع من ماله تبرعات للمجهود الحربي (كما أسماها أصحاب السلطان في مرورهم على البيوت لتحصيل التبرعات). اضطرت المنطقة جميعًا للالتفات حول السلطان؛ ليس إيمانا منهم بحكمته وقدراته القيادية، وإنما رغبة منهم في أن يتصدر هو المواجهة، طالما أنه من جر عليهم تلك المصيبة. لم يطل الانتظار.. مع الغروب، هجم سكان الصفيح، ودون الخوض في التفاصيل، فقد انتهت المعارك التي امتدت لثلاثة أيام، بانتصار ساحق للسلطان. بعدها صار الشاب الذي لم يزل يخطو فوق عتبة الرجولة أخطر من أنجبته تلك المنطقة بشهادة الجميع. وبقدر ما يخشونه، بقدر ما كانوا

fb/mashro3pdf

يتباهون به أمام أهالي المناطق الأخرى، التي لا يملك رجالها إذا ما زارهم السلطان غازيًا لأي غرض ـ لا يصحبه سوى سلاحه الآلي ـ إلا التسليم.. فالكل يعرف إنه قاتل، وللقاتل في قانونهم مكانة عالية. وإن كانت قصص قتلاه تروى كالأساطير، دون أن يراها أحد، وهو ما يدفع المتشككين لتكذيب تلك الحكايات (غالبا يكذبونها في غرف موصدة داخل عقولهم، خوفا من أن تتسلل كلمة على ألسنتهم ولو في زلة عابرة). أشهر تلك الأساطير، وأكثرها دعمًا بالأدلة، عن ذلك الجار الذي تجرأ في لحظة غضب، وسب والد السلطان. الجار اختفى بالفعل، لا يعرف أحد مكانه أو مصيره، ولا حتى الشرطة التي استدعتها زوجته ـ والتي اختارت بعدها الحياة في الأردية السوداء تحسبًا ـ ولكن الأسطورة التي يرددها الجميع، والتي صارت ترويها زوجة الرجل أحيانًا، وقد أجبرتها كثرة سماعها على تصديقها، أن السلطان هجم على بيت الرجل ذات ليلة، وقبل أن يقتاده ليقتله في مكان بعيد، كبله وقطع لسانه وأكله أمام أعين زوجته وأولاده!

أكبر الأساطير حول السلطان هي ما أشاعه رجاله من قصة هجومه على عزبة الصفيح. المؤكد تاريخيًا أن السلطان هاجم ورجاله عزبة الصفيح، وتمكنوا من هزيمة رجالها وإخضاعهم في ليلة واحدة، قيل إن السلطان ربط أجساد الرجال متجاورين بقضبان القطار، في صف امتد لأكثر من مئتي متر، وجلس ورجاله يشاهدون مرور القطار السريع مهللين. وهكذا امتد نفوذ السلطان لتلك البقعة الهامة والمتمردة على أطراف الحي،

fb/mashro3pdf

الـذي بـات يحكمـه بالكامـل. أمـا الأسـطورة فتقـول أن الـسلطان غفـا بعـد أن أثقـل في تعاطـي الحشـيش، وسـط قعـدة جمعتـه بأخلـص رجالـه. أراح رأسـه عـلى الجـدار، وأغمـض عينيـه مـتـسلمًا للنـوم جالسًـا. بعـد دقائـق، فتـح عينيـه، ودونـما مقدمـات قـال لرجالـه:

ـ ستفتح لكـم عزبـة الصفيـح.. وسـتخضعون رقـاب الرجـال.. وتلجـون فـروج النسـاء والأطفـال.

كان مذهـلاً أن يتحـدث الـسلطان بلغـة فصيحـة. رجالـه لم يفهمـوا شيئًا مما قالـه سـوى «عزبـة الصفيـح».. المثقفـون منهـم فهمـوا كذلـك لفظـة «فـروج»، وأسـعدهم مـا فهمـوه. ولكنهـم جميعًـا حفظـوا نـص الكلـمات، لإحساسـهم بأهميتهـا وبأهميـة اللحظـة. ولمـا تحققـت النبـوءة، أدركـوا أن الـسلطان ليـس مجـرد زعيـم، وإنـما سيدٌ مقـدس. تعـددت الأسـاطير حـول قدسـيته وكراماتـه ـ ونبوتـه أحيانًـا ـ مثـل المشي عـلى ميـاه الملاحـات، والطـيران في ليـالي القمـر. وبـدأوا يدوِّنـون الكلـمات التـي توحـى إليـه في مناماتـه، يطبعونهـا في أوراق مزخرفـة ويوزعونهـا أمـام المسـاجد بعـد صـلاة الجمعـة، غـير عابئين بغضـب المشـايخ، ولا بثـورة جماعـة السـلفين، الذيـن انتهـت ثورتهـم سريعًـا لمـا اكتشـفوا اختفـاء عـدد منهـم.

خليـل عبـد الحافـظ كان يسـكن في محيـط الحـي الـذي يحكمـه الـسلطان. في البـدء، كان يسـكن في قلـب الحـي، حيـث الإسـكان الشـعبي، في بلـوكات ملاصقـة لتلـك التـي نشـأ وترعـرع بهـا الـسلطان. ثـم فتـح الله عليـه، وانتقـل إلى أطـراف الحـي، حيـث المنطقـة التـي يتفاخـر أهلهـا بأنهـا أكثـر رقيًـا ـ ولـو بدرجـة طفيفـة ـ مـن تلـك المسـتنقعات المحيطـة بهـا (هـم طبعًـا لا يسـمونها

fb/mashro3pdf

«المستنقعات». فالتعبير غير متداول في قاموسهم) هو إذن على معرفة تامة بالسلطان، بل وكان صديقا لعمه، وقته أن جمعهما العمل في ذات المصنع. وكما كل من سمع عن أساطير السلطان التي ترويها الشوارع، يجب أن يهابه. يمكن إذن أن نتخيل مقدار الخوف الذي امتطى دهشة الأستاذ خليل، حين فتح باب بيته ذات ليلة، ليكتشف أن السلطان هو الطارق. بالطبع أصابته الكثير من رؤى الموت لحظتها، حتى كادت دموعه تسبق كلماته وهو يحاول أن يتخيل الذنب الذي ارتكبه واستحق لأجله تلك الزيارة. حتى محاولات السلطان للتلاطف والمزاح الودود كانت مخيفة، وابتسامته بدت للأستاذ خليل أكثر رعبًا من تجهمه. لكنه بالطبع لم يملك لحظتها سوى..

ـ اتفضل.. اتفضل.. ده إيه المفاجأة الجميلة دي؟

كان يقوده عبر صالة الدار الضيقة، صارخًا في أطفاله، الذين اتخذوها ملعبًا..

ـ غوروا من وشي.. على أوضتكم حالا..

هو في الحقيقة كان يرغب في مواراتهم عن عيني السلطان، تحببًا لصدق القول المتواتر عنه أنه «بتاع عيال» (هكذا ينطقونها في المنطقة، وإنما بلهجة محايدة لا تنم عن تبجيل أو تحقير لسلوك كهذا) حتى حانت لحظة تعاظم الدهشة، حين عرف الأستاذ خليل أن السلطان إنما أتى ليطلب منه وظيفة في وردية الليل، التي كانت وقتها محض فكرة راودته وصاحب الشركة، في جلسة خاصة لم يحدث بها أحدًا سوى زوجته..

fb/mashro3pdf

- بس إنت عرفت إزاي بموضوع الوردية؟

ابتسم السلطان استهزاء ولم يرد، فجمدت ابتسامته الدم في عروق الأستاذ خليل. ربما كان هذا دافعًا لأن تساوره شكوك من النوع المميت، تتعلق بسلوك زوجته! وإلا فمن أين علم السلطان بهذا الأمر إن لم يكن منها؟! (بعد أن يهدأ روع الأستاذ خليل سيضع احتمالا ثانيًا، وهو أن السلطان بالفعل يوحى إليه من السماء أو من تحت الأرض كما يدعون) ولكن في هذه اللحظة، ولحسن حظ الزوجة المسكينة، التي تتابع من وراء باب موارب ما يقال في اللقاء وقلبها يقفز خوفا - وإن شابه بعض الفخر، لكون حمادة السلطان بذاته يحتسي الشاي مع زوجها وفي قلب بيتها - كان تفكيره به شيء من الشلل، وهو ما جعل هدفه الوحيد لحظتها الخلاص من هذا الموقف بأية طريقة، لذا كانت موافقته فورية، دون الخوض في أية تفاصيل، أو حتى التفكير فيها. لكن السلطان بدا وكأنه فكر بالفعل في الكثير، لذا زاد العشم..

- بس أنا مش عايز أي شغلانة.. أنا عايز أقعد غفير ليل على شونة المصنع.

بالطبع لن يستطيع الأستاذ خليل أن يرفض، برغم نهش الظنون للعقل؛ فما الذي يدفع شخصًا كالسلطان للتقدم بطلب كهذا؟ يمكنه أن يتخيل أكثر من إجابة لتساؤله - مثلا لرقة الشونة، أو ربما مثلا لاستخدامها كمخبأ لمخدراته - وكلها أجوبة غير لطيفة، رأى أنه ليس من الحكمة مصارحة السلطان بشيء

fb/mashro3pdf

منهـا. برغـم أن الـسـلطان تـبرع لحظتهـا وحدثـه عـن التوبـة وتـرك كار المخـدرات، والرغبـة في عمـل شريـف وزوجـة. حتـى مـسـألة المخـزن تلـك كان يمتلـك لهـا مـبررًا مقنعًـا..

ـ أنا مش صاحب صنعة.. وبصراحة ما فيش دماغ أتعلم.

لكنـه ـ وهـو مـا أضافـه بابتـسـامة ذات معنـى ـ أفضـل مـن يصلـح للعمـل كخفـير، وهـو مـا كان الأسـتاذ خليـل واثقًـا منـه، فهـل مـن حـارس لمكان أفضـل مـن شـخص يخـاف النـاس لمجـرد ذكـر اسـمه أمامهم؟!

بالطبـع لم يصـدق الأسـتاذ خليـل حرفًـا مـن حكايـة التوبـة تلـك، ولم يتوقـف يومًـا عـن مراقبـة السـلطان مـن النافـذة في الجـدار المقابـل للجـدار الزجاجـي. كان يمكنـه عـبر النافـذة أن يكشـف فنـاء المصنـع بالكامـل، بـما فيـه البوابـة المعدنيـة المغلقـة دائـمًا، عـدا في أوقـات انـصراف ورديـة وبدايـة أخـرى، وبـاب الشـونة المغلـق دومًـا في أوقـات الخلـو مـن حركـة تخزيـن وصرف المنتجـات أو المـواد الخـام، مفتـاح المخـزن مـع أمـين المخـزن فقـط، ويسـلمه قبيـل ورديـة الليـل للأسـتاذ خليـل، ليكـون المخـزن بـما فيـه عهدتـه حتـى الصبـاح. وأمـام بـاب المخـزن، يجلـس الـسـلطان أمـام النـار يصنـع بـراد الشـاي وراء الآخـر، لا يتحـرك منـذ أن يحـضر في بدايـة الورديـة وحتـى نهايتهـا، لا يـأكل أو يدخـل الحـمام، لا يغفـل أو يتحـدث في هاتفـه، لا يلتفـت حتـى وراءه، ولم يحـدث ولـو مـرة أن رفـع عينيـه نحـو النافـذة المفتوحـة لمكتـب الأسـتاذ خليـل. مجـرد تمثـال شـمعي لا يكـف عـن شرب الشـاي، في ليـالي الشـتاء يتدثـر ببطانيـة ثقيلـة تخفـي كامـل جـسـده، ويـسـدلها حتـى عـلى رأسـه. وبرغـم هـذا، لم يتوقـف

fb/mashro3pdf

الأستاذ خليل عن ارتيابه، ولم يكف عن مراقبته، بل وربما هذا السلوك المسالم أكثر من اللازم كان من عوامل ذلك الارتياب في البدء، ثم أضيف إليه ما كان يبلغ أذني الأستاذ خليل من حكايات الشارع، عن أناس قتلهم السلطان، وجرائم ارتكبها، ومناطق جديدة ذهب إليها غازيًا، وكل هذا يقع أثناء الليل، في فترة الوردية! بل وقابل مرة من أقسم له أن السلطان ليلة أمس ذبح رجلاً وزوجته أمام عينيه، في حين كان السلطان طوال ذات الليلة يشرب الشاي في فناء المصنع تحت مراقبة الأستاذ خليل! لهذا، لم يستطع الأستاذ خليل أن يتوقف عن خشيته، حتى أنه تقريبا لا يعامله، وحتى تموينه اليومي ـ يحصل السلطان دونًا عن أي من العمال على حبتي فراولة، في حين أن نصيب معظمهم لا يتعدى النصف حبة ـ يرسله له مع عمرو النص، في حين يتولى هو مهمة التوقيع عنه في كشف الحضور؛ فالسلطان منذ بدء عمله لم يقترب من مكاتب الإدارة.. لا يعرف الأستاذ خليل سببًا لهذا، ولا يهتم بالبحث عن واحد، وإنما يكتفي بالارتياب الصامت.

لكل هذا، استبعد الأستاذ خليل سريعًا من ذهنه فكرة اللجوء للسلطان في هذا المأزق.

صاحب الشركة...

قاوم الأستاذ خليل لفترة فكرة الاتصال بصاحب الشركة، راوغها عبر أركان الحجرة، حتى أسقطها من خلايا رأسه تمامًا. إهانة كبرى لذاته إن هو ـ بعد أعوام من لعب دور القائد الحكيم ـ أظهر لصاحب الشركة عجزه عن حل أول مشكلة

fb/mashro3pdf

حقيقية تقابله منذ أن تسلم منصبه القيادي. والأهم كذلك، أنه -لطول العشرة- يعلم جيدًا مدى كره صاحب الشركة لأية مقاطعة لغزواته الليلية؛ فإن هو هاتفه الآن فسيكون مصيره قطعًا التوبيخ - بألفاظ سباب خارجة غالبًا - على مسمع من الأفندية والبهاوات الذين يشاركونه السهرات وقعدات المزاج، وربما باتت سيرته تسلية لهم لآخر القعدة. يدرك يقينًا أن، في هذه الساعة من الليل، صاحب المصنع لن يكون إلا في وسط قعدة حشيش أو جلسة سكر أو حول طاولة للقمار، وربما الثلاثة معا. ربما كذلك - وهو أغلب الظن - يكون الآن ممتطيًا فتاة ما، أو ربما اثنتين، وأحيانًا ثلاثة! فصاحب الشركة - كما يعرفه - مصاب بحالة من الشره الجنسي؛ يضاجع العاهرات بشغف وكأنها الليلة الأخيرة للبغاء على سطح الأرض! وربما يوحي له العقل المشبع بالشبق أن الاكتفاء بواحدة أمر ينافي المنطق، طالما أنهن كثيرات بما يفوق قدرته على العد! في منتصف العشرة أعوام الثلاثينية من عمره لم يزل، ولكنه بات لا يستطيع ملامسة امرأة دون تعاطي المقويات الجنسية. ولم يكن في الكون من هو أكثر دراية بهذا من الأستاذ خليل، الذي يمد صاحب المصنع بمخزون لا ينتهي من هذه العقاقير. مهمة يقوم بها عن حب ظاهري، مؤيد بواجبات صداقة يزعمها حين يقسم أيمان الحرام من البيت - أو من الدين؛ على حسب الإيقاع العام للجملة - أمام رزمة الأوراق المالية الممدودة تجاهه، ألا يتقاضى ثمن الأدوية، ولكن أمام ابتسامة مستهينة - تدعي الود رغم هذا - ترتسم على وجه صاحب المصنع، يدرك أن أداءه التمثيلي

fb/mashro3pdf

مفضوح، فيذعن ويأخذ النقود، التي تساوي ضعف ما دفعه فعليًا إلا قليلا. يخرج بعدها قطعة دقيقة من الحشيش، محشورة في علبة سجائره، ويجلس محنيًا أمام ولي نعمته يلف له سيجارة. في هذه الدقائق التي يقضيها متمهلاً في لف السيجارة، يتحدثان، ينقل له أخبار المصنع، يحكم بمهارة نصب الفخاخ حول قدمي مدير المصنع؛ لا لعداوة شخصية، وإنما فقط لأنه الرجل الذي يشغل المقعد الذي طالما حلم به الأستاذ خليل، والذي يعتقد - وربما هو محق في هذا - أنه ثمن قليل لخدماته اللامعدودة لصاحب الشركة.

صاحب الشركة يبادله كذلك الحكايات بعد أول نفس من السيجارة، وبعد نفسين تاليين يصبح كتابًا مفتوحًا، ما من شيء يقرأ فيه سوى أخبار العلاقات الجنسية. لا يعرف الأستاذ خليل برغم هذا الكثير عن نشأة ولي نعمته، وإن ساوره الفضول كثيرًا ليعرف، الناس يقولون إن المال يفسد النفوس، ولكن الأستاذ خليل لم يكن يقتنع بمثل تلك الأقاويل، ولا يعتبرها أكثر من مجرد دعاية حكومية للفقر. هو عاشر والد الشاب، يعرف أنه كان رجلا قاسيًا مهيبًا، وكثيرًا ما شاهده يسب ابنه أو يضربه في قلب المصنع، وأمام أعين العاملين، فكيف لرجل كهذا أن يصبح ابنه الوحيد على هذا الشكل؟ وكيف لتربية صارمة كتلك أن تنتج هذا الشاب المستهتر العابث؟

أحيانًا كان الأستاذ خليل يشفق على الشاب الذي يبالغ في استهلاك جسده، وأحيانًا كان - كما تقتضي واجبات الصداقة المزعومة - ينصحه بأن يهتم بصحته..

fb/mashro3pdf

ـ بالراحة على نفسك يا باشا.. النسوان مش هتخلص..

يحاول إقناعه أن الأمر لا ينطوي على إهانة، أو انتقاص من رجولته إن هو غادر الفراش دون أن تبلغ رفيقته ـ رفيقاته ـ ذروتها ـ ذرواتهن ـ كما يعتقد صاحب الشركة. في مرة حكى صاحب الشركة للأستاذ خليل والحزن على وجعه، عن فشله في مواصلة رحلته للنهاية مع رفيقتيه تلك الليلة..

ـ أول مرة أتعب بالشكل ده..

استلقى على ظهره مسترخيًا ـ كما حكى لمرؤوسه ـ وأمرهما أن تساعد كل منهما الأخرى على بلوغ ذروتها.

ـ وأنا بتفرج عليهم حسيت إني حيوان.. فردة شراب وحيدة مالهاش أي لازمة في الدنيا!!

يومها أدرك كم بات جسده الشاب مستهلكًا. رغم هذا لم يسامح نفسه أبدًا، فقد كان تقصيره ليلتها كنقطة سوداء يطارده شبحها لليوم. الأستاذ خليل نصحه ـ والنشوة تخنقه أن صار محلاً لثقة ولي نعمته ومؤتمنًا على الأسرار ـ أن يزيد من جرعة المقويات. بالطبع كانت أمام عيني الأستاذ خليل استفادة شخصية مرتقبة من وراء تلك النصيحة، في زيادة ما يحصله من وراء توريد المقويات، وكله ـ كما يردد دائما ـ رزق من عند الله. تلك المنفعة المتبادلة تتوج علاقاتهما بما يعتقد الأستاذ خليل أنه أكثر من الصداقة، فالانتفاع المتبادل بين شخصين، هو ـ كما يراها خليل عبد الحافظ ـ أرقى أنواع العلاقات الإنسانية. علاقة كهذه تعتمد في الأساس على إيمان صاحب الشركة

fb/mashro3pdf

بقدرات الأستاذ خليل على تسيير الأمور، ومن هنا تتشكل الخطورة على علاقتهما، إذا ما بلغت صاحب الشركة، ولو حتى أصداء عن تلك الأزمة الطارئة.

* * *

أصابه ذاك الإرهاق البدني المصاحب للحيرة، فأراح الأستاذ خليل جسده فوق المقعد الجلدي الرابض أبدًا وراء المكتب الخشبي. كادت تبلغه ـ لولا جدار الزجاج العازل للصوت ـ همهمات الدهشة من العمال المتزاحمين أمام باب المكتب المغلق، وإن لم يحجز عنه سمك الزجاج تعابير الضجر، وحفر التساؤلات في العيون، التي ما اعتادت أن ترى رئيس الوردية جالسًا وراء المكتب. كان عليه أن يصل إلى حل سريع، وغالبًا المصارحة هي أسرع الحلول ـ هذا ما بلغه عقله، كمطاف أخير لكثرة التفكير ـ وإلا فسيضيع وقت الوردية في حيرة البحث عن الحل العبقري المنتظر. تأفف مفكرًا أنه ربما ليس بتلك العبقرية المؤهلة لإيجاد الحل؛ تنتابه أحيانًا ـ في مواقف كتلك ـ شكوك ـ يجيد كبتها سريعًا ـ حول أهليته لتولي منصبًا قياديًا كهذا، عبارات وأوصاف طالما سمعها من أبيه أو من أمه، مثل: «يا خايب!» أو «ابقى شخ على قبري لو فلحت!» غالبا ما تختار زيارته في أوقات كتلك، فتزيد من أوجاع نفسه. لذا، ما كان يمقت شيئا أكثر من أن يجد نفسه عاجزًا عن طلب المساعدة.

fb/mashro3pdf

بوهن المستلم لضغط الوقائع أشار إلى عماله بالدخول.. فتح الباب، وتكدست في الحجرة الأجساد المفعمة باللهفة والتساؤل. لم يحاول الأستاذ خليل حتى انتقاء كلماته أو بذل أدنى جهد في ترتيب أفكاره. مستبقًا خذلان الكلمات قال:

ـ معلش يا رجالة.. ما فيش تموين الليلة.

واجه سخط وجوههم بحقائق خطابية عن المصنع الذي طالما منحهم من خيراته، وعن كرم صاحب المصنع، وعن جهوده هو شخصيًا في تلبية احتياجاتهم دونما تأخير..

ـ يبقى مش كتير يا رجالة علينا، لما نطلب منكم بس تعدوا الليلة دي من غير فراولة. يعني.. تنازل بسيط منكم لمساندة المصنع في أزمته الطارئة.

عندما أنهى خطابه، لم يكن الاقتناع هو ما يلون الوجوه، وإنما إذعان المحبط قليل الحيلة. كان يعرف أن وجوه كالصفوفة أمامه لن تحمل تلك الليلة أي إخلاص أو حماسة للعمل، وهو لا يهمه شيء قدر اهتمامه بإنتاجية ورديته؛ لحظتها وجد الكلام ينساب من فهمه دون تخطيط، وبارتجال فاجأه هو نفسه..

ـ المهم عندي الشغل ما يتأثرش بحاجة زي دي. حتى لو اعتبرتوها لعبة.. آه.. صح.. هي لعبة. لعبة سهلة كمان.. وممكن تكون ممتعة...

ما تكشف لحظتها أمام عيني رئيس الوردية، وبعد أعوام لهم من تعاطي البرشام بأنواعه ـ وربما الحشيش أو ما هو أبشع ـ لماذا لا يختبرون قدراتهم على لعب دور المسطول؟

fb/mashro3pdf

ـ كأنها مسرحية.. كأنكم ممثلين.. اتخيلوا.. كل واحد فيكم يتخيل إنه أخد جرعته.. كل واحد فيكم يتخيل إنه مبرشم ومطرطش.. الخيال هيحرككم ويخليكم تشتغلوا بنفس القوة والطاقة، وكأن كل واحد فيكم رافع شريط فراولة بحاله.

كلامه لم يعجب أحد ـ هكذا قرأ في الوجوه ـ ولكنهم أخفوا رؤوس الطاعة والاستسلام، وغادروا إلى أعمالهم؛ برغم هذا كان الأستاذ خليل متشيًا إعجابًا بفكرته الاستثنائية التي باغته في عز الأزمة، مستشعرًا أنه الآن يتحقق فيه مبدأ أن الرجال يظهرون في الشدائد، فيزداد فخرًا!

قبل أن يكتمل انصراف العمال، استوقف عمرو النص، ووكله بمهمة إبلاغ حمادة السلطان بما انتهت إليه الأمور، فلما خرج لأداء المهمة، نهض الأستاذ خليل عن مكتبه إلى النافذة، وقف يراقب الحوار الدائر بين عمرو النص والسلطان، محاولا استكشاف ردة فعله، واضعًا يديه على قلبه. في هذه اللحظة ـ وكحدث فريد ـ رفع السلطان عينيه نحو نافذة مكتب الأستاذ خليل، لوهلة فكر الأستاذ خليل في التواري كالأطفال، ولكنه تماسك. لما تلاقت العيون ـ برغم بعد المسافة ـ ابتسم السلطان، بادله الأستاذ خليل الابتسام، وهو لم يزل يفكر في معنى تلك الابتسامة!

fb/mashro3pdf

عن أحمد هيكة، عن عمرو النص، عن رجب السلعوة، عن إبراهيم عضمة، أن أكرم الروبي قال: سمعت مولانا ونبينا السلطان يقول:

إدَمُ الرَجُلِ إن سالَ بِغيرِ قِتَالٍ.. فَدَمِ الحَائِض أكرَمُ مِنهُ!

fb/mashro3pdf

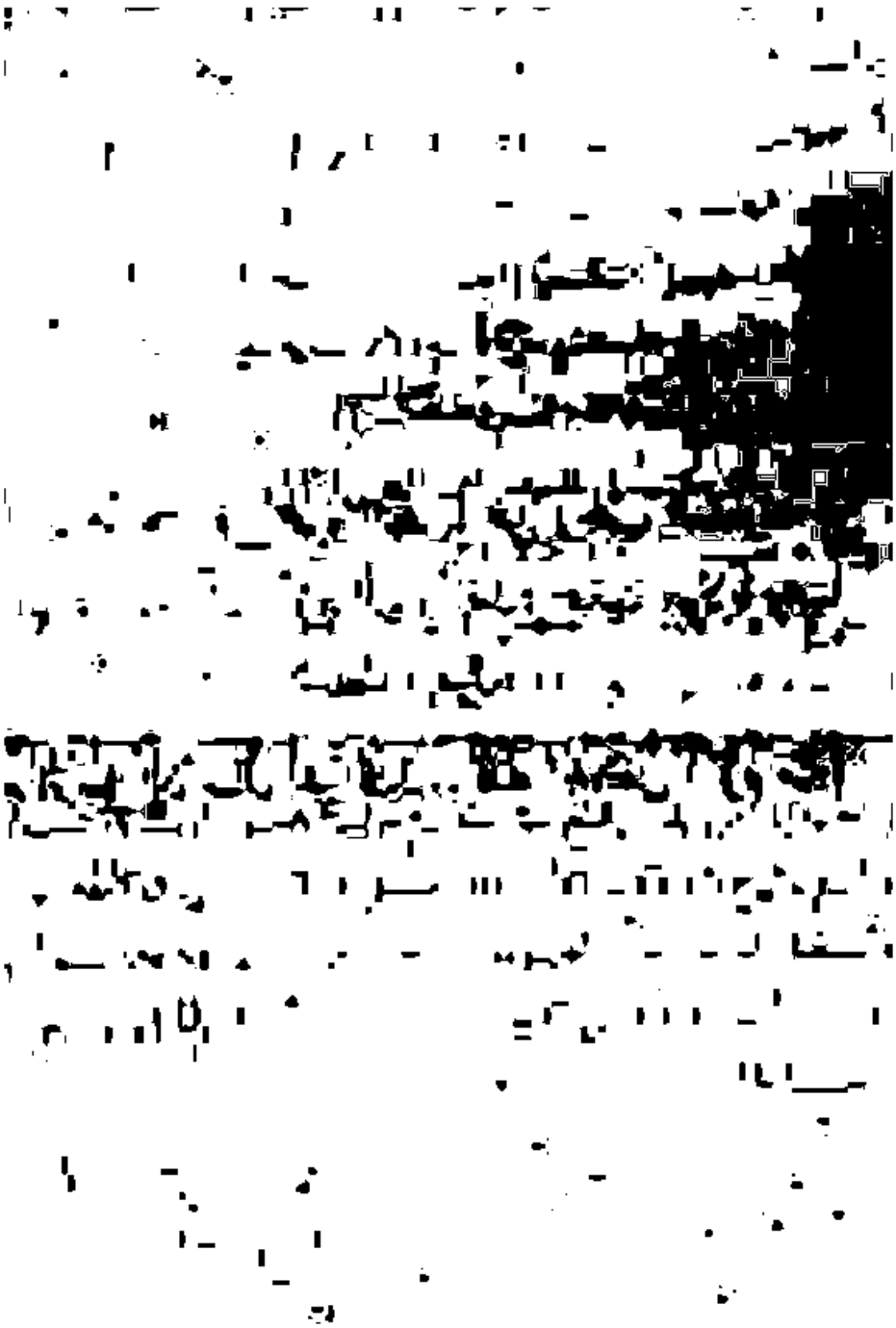

fb/mashro3pdf

وردية الفراولة

مع مضي الوقت، وطول المراقبة من وراء جداره الزجاجي، أقر الأستاذ خليل بأن سير العمل الليلة لا يرضيه. الدقائق تمر منزوعة الحماس. الطاقة التي تدفع العمال لبذل الجهد بلا توقف معدومة. انتابته الشكوك في فاعلية خطته، ففتر حماسه كذلك، وحدث نفسه - بحسرة - بأن الليلة للنسيان، فليتقبلها الآن كما هي. وللمرة الأولى منذ توليه المنصب يتراجع عن جداره الزجاجي، ويسترخي على مقعده لا مباليًا - أو هكذا أقنع نفسه - بما هو كائن، أو بما سيكون. أسبل جفنيه، وقرر أن يجرب النوم أثناء ساعات العمل.

العمل..

وردية الليل يعمل بها اثنا عشر عامل، وهو الرقم المناسب لتشغيل المصنع بكامل كفاءته، في حين يتم الاستغناء في هذه الوردية عن الإداريين والساعي وعامل البوفيه، وكذلك العاملات، واللاتي لا يتعدى دورهن في المصنع فرز أكوام

fb/mashro3pdf

البلاستيك الذي يحضره يوميا متعهدو القمامة، في أجولة قذرة مكدسة على عربات الكارو. يصنفن المخلفات البلاستيكية ـ كزجاجات المياه والمعلبات وغيرها ـ حسب نوعها، ويضعون كل صنف بشكل منفصل في أكياس كبيرة، يتم كبسها وربطها بإحكام على شكل بالات، ويتم تخزينها لوقت السحب منها. ولهذا، فالمخزون لا ينضب أبدًا، ولا يكون ثمة حاجة لعمل الفتيات في وردية الليل، فلديهم في الشونة ما يكفي ليدخل ماكينة الجرش طوال الليل، ليتم فرمه وتجهيزه لإعادة التصنيع، يتم سحب أقله جودة لعمل باقي ماكينات المصنع، والتي تحول البلاستيك الردئ لكراسي حمام وجراكن المياه والخراطيم المستخدمة لدفن أسلاك الكهرباء، في حين يتم نقل البلاستيك الأعلى جودة لباقي المصانع، حيث يخلط بالبلاستيك الخام المستورد، ليتسج الأثاث البلاستيكي والأداوت المنزلية.

الصمت ليلتها لم يقاسمه الوجود سوى صوت الماكينات العتيقة. العادة كانت تحتم أن يزاحم الهدير الميكانيكي ـ كما كل ليلة ـ صخب العمال. بقدر ما يفنوه يوميًا من جهد في العمل، بقدر ما كان براح المصنع يتسع لصخبهم ولهوهم، كمتنفس جانبي لفائض الطاقة. ولكن الليلة تسير بطيئة بلا فائض طاقة، وبلا طاقة، وبلا حتى رغبة في العمل. فراغ بدني وعقلي، أتاح لكل منهم فرصة يكرهها للشرود في أحواله الخاصة وأوجاعه. انغلق في وجوههم باب الهرب اليومي، فواصلت قيود أزماتهم مصاحبتها اللحوحة لهم، فبان التجهم على الوجوه بما هو أكثر من إحباط اختفاء التموين اليومي، وإنما بإحباطات أزمات أعمار

fb/mashro3pdf

كاملة، بتجليات الثورات المكبوتة على مر السنين، باختلافات مسبباتها. ألسنتهم تجري على بوابات الحلوق، مختبئة خلف شفاه تلوك على مهل الحروف المحبوسة بأحاديث طال كبتها، وبلعنات على رأس الفقر أو المرض أو جريان العمر. لحظات بطيئة معجونة برثاء الذات مرت على كواهلهم تزن أطنانا. وفي عقل الجميع تشكلت أمنية واحدة ربطت أحلامهم ببعضها ـ في لحظة نادرة من توارد الخواطر ـ أن تنتهي هذه الليلة على خير.

عمرو النُص...

أصغر العاملين في هذه الوردية، لم يزل يحارب جريان الأعوام العشر الثالثة من عمره، أحلى أعوام العمر، كما يدركها.. وكما يدركها زملاؤه في الوردية كواحدة من مسببات الحسد الذي يحملونه ـ مخفيًا ـ تجاهه. باقي مسببات الحسد تكمن في ملاحة وجهه وحلاوة لسانه وخفة ظله.. النص من ذلك النوع المندرج تحت تصنيف (حلنجي)؛ قادر على اختراق القلوب بسرعة البرق، على اختلاف قساوتها.. يستطيع التهام أي عقل وجذب أي أذن بحكاياته وقفشاته. قد لا تحبه، أو تعتبره مجرد شاب عابث مخادع، ولكنك لن تمل أبدًا من حكاياته ونكاته التي يطلقها في كل ثانية ككوميديان محترف. علاقاته النسائية لا تحصى، وهو في حد ذاته سببًا كافيًا لمزيد من الحسد، حتى وإن كان ـ وبعكس الجميع ـ لا يحب التفاخر بفحولته، ربما لأنه لم يزل صغيرًا، لم يبلغ بعد تلك السن التي يدرك فيها أن حياته مضت

fb/mashro3pdf

بلا أي إنجازات سوى ما أنجزه على الفراش! فقط حين يسخر أحدهم من قصر قامته، يسرد النص أمامه كل الأقوال خفيفة الظل التي تقال في وصف فحولة قصار القامة. مرة واحدة حين شكك أحدهم في رجولته وكان جادًا فيما يقول ـ هو لا يضايقه المزاح، فهو قادر دائمًا على رده بمزاح أكثر حرقة وظرفًا ـ أخرج هاتفه، وعرض أمام أعينهم المذبوحة ذهولا لقطة فيديو تظهره مع فتاة ما في الفراش. صراخ الفتاة الجنوني أثار هياجهم، كثيرون توسلوا إليه طويلا أن يسمح لهم بمشاهدة تلك اللقطة - ومثيلاتها إن وجدت ـ ولكنه رفض، بحجة أنها أمور للاستخدام الشخصي فقط، أو كما شبه الموقف لأحدهم ذات مرة بعد وصلة إلحاح..

ـ الحاجات دي شخصية يا صاحبي.. زي كس أمك مثلا!! ينفع تخلي حد يتفرج على كس أمك؟!

فما بقي بعد هذا القول أحد يطالبه بمشاهدة تلك اللقطات!

عمرو هو الابن الذكر الوحيد لأب من أصول صعيدية، عاش حياته كلها يتمنى الولد، ثم مات قبل أن يراه. أمه لم تهتم أبدًا بجنس الأبناء، ولم يضايقها أن تنجب ثلاث بنات، وإنما كان يضايقها الهم الذي حفر مجراه على وجه زوجها؛ ولهذا دعت الله كثيرًا أن يرزقها الذكر من البطن الرابعة. عندما مات الزوج وهي بعد على أبواب انتفاخ البطن، دعت الله أن يخنق الجنين في رحمها أو يخرجوه جثة ممزقة إن كانت أنثى رابعة. وفاة الزوج جعلتها أكثر تمسكًا منه بالولد؛ ليس فقط لكي يكون سندًا

fb/mashro3pdf

لأربعة نساء سيجمعهن بيت بلا عائل، وإنما لكي تتخلص من إحساس بالذنب يحرقها، أن مات زوجها دون أن تحقق له أملا وحيدًا في الحياة. فلما أنجبت عمرو، كان لها قرة العين، وكان له أربع أمهات يدللنه، فلم يزل يحاصره في كل مكان، وحتى هذه اللحظة، مقولة أن أمه أفقدته بتدليله (أو كما يردد البعض باللفظ الصريح في وجهه أو من وراء ظهره، «الواد ده تربية مرة»). رغم هذا ـ وعلى كراهة منها ـ لم تكن الأم تملك سوى أن تدفع به صغيرًا إلى الشارع، فتدليلها له لا يعني أن يبقى في حجرها وهم المحتاجون إلى كل قرش يمكن اصطياده. لذا عارك عمرو الحياة منذ صغره، وكان يعرف كيف يجلب القرش وهو لم يبلغ الحلم بعد.

عمرو من ذات المنطقة الشعبية التي يسكنها ـ ويحكمها ـ السلطان، وكأي مراهق، طالما حلم بالصيت والسمعة المهيبة، ولكن هزال جسده وقصر قامته جعلاه يصرف النظر عن الوسائل العنيفة لاكتساب الصيت، واكتفى بقدرته على اكتساب حب الآخرين، وكونه ـ كما يصفونه في المنطقة ـ فاكهة أية جلسة، حتى كان من القلائل الذين يمكن وصفهم بأنهم من المقربين للسلطان، حيث يروى عن السلطان أنه كثيرًا ما يتأمل الوجوه المحيطة به في أية جلسة، ويتساءل:

ـ فين النُص؟

ليهب كل المتحلقين حوله لإحضار النُص وإن كان في قبره. والأهم، أنه واحد من الذين يعملون على نشر كلمات السلطان

fb/mashro3pdf

المقدسة في المنطقة، وكثيرًا ما يخرج لمحدثيه من جيبه ورقة مدون بها أحدث كلمات هبط بها الوحي على السلطان. بدءًا، لم يكن أحد يصدق شيئا من هذا، ولكن قدرة النص على سرقة أذن مستمعيه تجعله يسحرهم أحيانًا، فيشعرون بارتجافات في القلب، ورغمًا عنهم يتساءلون ماذا إن كان على الحق؛ فيكون سؤالهم هذا أول بذرة للإيمان!

بعض المكذبون ذهبوا في أفكارهم إلى ما هو أبعد من كون عمرو النص واحدًا من مريدي السلطان والمبشرين بنبوته، إلى كونه هو من ينسج تفاصيل تلك الأسطورة، وهو من يخط بعقله وبيديه تلك الكلمات المنمقة، التي يدَّعون أن السلطان يوحى إليه بها. ولكن هذا الإدعاء يمكن تفنيده منطقيًا بسهولة؛ فكيف لشاب شبه متعلم (لم يتجاوز الصف الثاني الإعدادي) وبلا أية ثقافة كعمرو النص، أن يكتب تلك الكلمات التي تبدو ـ شكلاً ـ عميقة، وإن لم يفهمها الكثيرون؟!

قصر قامة النص سبب في نصف السخرية التي تنهال على رأسه منذ طفولته، وهو المتسبب في لقب «النُص» الذي يصاحبه منذ الدراسة الإعدادية. وعلاقته بالسلطان تقف وراء النصف الثاني من السخرية؛ وكلها تدور حول تلميحات وقفشات عن أن السلطان اعتاد مضاجعته. الكل يعرفون أن هذا غير صحيح، ولكنهم يأخذونها مادة خصبة لاستفزار مهارات النُص في السخرية والرد على منتقديه بقفشات ساخنة، تجعل المطعون بالسخرية نفسه ينفجر ضحكًا، حتى أكثر من باقي السامعين.

fb/mashro3pdf

جـــد النُـص لم يكـن يسـمح لـه ببـذل ولـو حتـى مـا يسـاوي نصـف مـا يبذلـه زمـلاء الورديـة، ولا حتـى طاقـة المخـدر تفلـح معـه! ربـما كان وجـوده في تلـك الورديـة، بجـوار الرجـال الأشـداء، عـلى اختـلاف أعمارهـم، مثـارًا للتسـاؤلات المتهكمـة؛ ولكـن حضـوره كان يكتسـب ضرورتـه مـن كونـه بهجـة للمـكان. كل ليلـة، لا بـد وأن يـصرخ في وجـه الأسـتاذ خليـل حـين يضـع في يـده نصـف البرشـامة..

ـ بـس كـده؟! تعمـل إيـه دي يـا ريـس؟ أنـا عـاوز نـص شريـط علشـان يحـوّق فيّـا.

وبمجـرد أن يبتلعهـا، حتـى يتقلـب في الهـواء كالبهلـوان، ويجـري في أرجـاء المصنـع وهـو يـصرخ:

ـ اشتَغلِت..

وبعـد دورتـين، يرتمـي عـلى الأرض مسـترخيًا، يشـعل سـيجارة وهـو يخبرهـم بـأن مفعـول البرشـامة قـد انتهـى! ويسـتمتع لحظتهـا بتلقـي سـبابهم السـاخر، مسـبل الجفنـين.

عمـرو النُـص تحديـدًا هـو أول مـن انتبـه للعبـة؛ ربـما طبيعتـه الطفوليـة النزقـة، أو رأسـه الـذي طالمـا أقسـم الزمـلاء ثقـة مـن فراغـه وخلـوه مـن أي همـوم أو أزمـات (يقولونهـا بلهجـة ظاهرهـا الاسـتهزاء، وإن فاحـت منهـا رائحـة حسـد لا يخطئهـا السـامع) همـا مـا يجعـلاه أكثـر تقبـلا لفكـرة اللعـب مـن زملائـه، لـذا كان هـو أول مـن بـدأ الأمـر.

fb/mashro3pdf

عندما بدأ يغني كان صوته، رغم خفوته، كقنبلة انفجرت وسط الصمت الساكن المكان. صوته تعالى بتدرج واثق، فاخترق أردية الإحباط المسدلة على العقول، حتى جذب انتباه كل من في المصنع ـ وهي للأمانة لم تكن بالمهمة العسيرة، فكلهم ما زادوا عن ابداء اهتمام تمثيلي مفضوح بالعمل ـ فرفعوا الرؤوس إليه وابتسموا. حين بدأ النص يركض بمرح بين الماكينات وهو يهتف:

ـ اشتغلت خلاااااااااص...

أدركوا أنها اللحظة المأمولة أخيرًا، لحظة التباعد عن الهموم التي سكنتهم بغير دعوة. أجادوا استغلالها بين ضحك وسباب أهالوه على رأس الشاب، منهم من طال قفا عمرو النص بكف مفتوح حين مر جواره في رحلته المحمومة، في حين كان هو ينفض جسده مسبل العينين، كدرويش تائه في رحلة الحقيقة، وهو يصرخ بنغمة رتيبة منغمة:

ـ اشتغلت.. اشتغلت...

موقف يحفظه عمال المصنع لطول ما شاهدوه ـ وإن بقت مشاهدته محببة دائمًا ـ وإنما زاده النص هذه المرة مبالغة في تشنجات جسده، وحين مد يده قابضًا على ذراع شعبان طريشة داعيه للركض معه، كانت المرة الأولى التي يحرضهم فيها على فعل المثل. البعض أبدوا امتعاضهم، اعتبارًا لأن النص بهذا «زودها شوية»، ولم يضع اعتبارا لفارق السن والمقام بينه وبينهم، ولكن امتعاضهم لم يكن يحمل أكثر من مجرد ضرورة اجتماعية، ولا ينم

fb/mashro3pdf

عن رفض حقيقي لما يحدث، ولا حتى للمشاركة فيه. في النهاية كان هتاف النص «اشتغلت.. اشتغلت» مفعمًا بنغمة وجدها الكثيرون منهم حماسية، فتبعوه على استحياء في البدء، ثم بجرأة المغيب بعدها، حتى بات المصنع كله تقريبًا يدور ركضًا في طابور بين الماكينات ويهتف «اشتغلت». الصوت كان أعلى من أن يحبسه الجدار الزجاجي العازل للصوت في حجرة الأستاذ خليل. فتح عينيه عن دهشة لانتهاك هدوء حجرته للمرة الأولى بصوت آت من المصنع؛ فحتى هدير الماكينات لم يفعلها من قبل. قام مسرعًا إلى جداره الزجاجي، لهفته لم تسعفه بوقت لفرد قامته، ولا لعقد كفيه وراء ظهره. لم يدر لماذا أصابه شيء من قلق في البدء، لحظة أن رأى ذلك المشهد، وربما شيء من خوف كذلك.. كانت المرة الأولى التي يرصد في ورديته حالة الانسجام التام تلك بين العمال. بقليل من التأمل ـ مع سابق اعتياده على مراقبة هذا الجنون الذي يفعله يوميًا عمرو النُص ـ أدرك هذا الحدث كإشارة محتملة لنجاح خطته. انتشى لوقع الفكرة، وهم بأن يدرك ما فاته، ويتخذ وضعية الوقوف المفضلة، لولا أن قرر مكافأة نفسه بشيء من الاسترخاء. سحب كرسيًا وقربه من الجدار الزجاجي، وجلس متأملا لهو العمال.

النص لحظتها أدرك شعور حامل الرسالة.. هكذا كان يرى المهمة الثقيلة على عاتقيه. كان عليه أن يحول كلمات الأستاذ خليل الإنشائية لإجراءات واضحة على أرض الواقع. أمهمة يعرف أن لا أحد سواه قادر على القيام بها؛ فكانت لحظة انتشت فيها روحه بأحاسيس القيادة، ولم يهدأ، وتسترخي أوتار روحه

fb/mashro3pdf

المشدودة، إلا حين بلغ طول الطابور المتشي الصاخب اثنا عشر رجلا متفاوتو الأعمار، هو عدد عمال الوردية دون نقصان. آخر المعارك انتهت باستسلام عم إسماعيل أكشن ـ أكبر عمال الوردية سنًا ـ وانهيار آخر حصون وقاره المزعوم، لينضم أخيرًا للموكب المنفلت. مقاومة عم إسماعيل للحدث لم تكن بسبب شيته أو هيبته، وإنما بسبب شعوره ـ لسابق خبرته في التمثيل ـ بأن هذا الدور الذي يلعبه النص كقائد لتلك المرحية، كان يجب أن يكون من نصيبه هو.

بعد وقت ليس بطويل، تفكك القطار وتناثرت أجزاؤه البشرية بين أركان المصنع تلهث باستمتاع. ضحكاتهم تحمل فرحة إعادة اكتشاف اللهو الطفولي البكر. للحظة نسوا كل الهموم والأزمات، وسلمتهم الفرحة لمزيد من الحد لعمرو النُص، الذي لم يزل يختبر متعة إفراغ العقل والروح تلك كل ليلة، في حين لا يملكون هم في مواجهة همومهم الإجارية سوى التشدق بها، كدليل على الرجولة وتحمل المسئولية، وكأنما كان اختيارهم أن يحيوا في معاناة أبدية. الأستاذ خليل لم يبال كثيرًا بما يتقلب في نفوسهم. ما كان يهمه هو الحماسة التي عادت تسري من جديد في ورديته المجتهدة. تأمل راضيًا سير العمل يأخذ وتيرته اليومية المعتادة، فعاد يسبل جفنيه راضيا.

* * *

fb/mashro3pdf

التجربة التي أجبرهم عمرو النّص على خوضها زرعت في رؤوس العمال أن الخيال قد يكون أكثر قوة من الواقع. فما فعله النّص وهو يدعي السّطل، فاق ما يفعله يوميًا وهو مسطول حقاً! الفكرة كانت ملهمة، فأعطت للعبة اسم: المبالغة.

كما كل ليلة، بدأ سعد عبد الرازق يدندن بأغاني وردة، وإنما بصوت أعلى من المعتاد. عبد المرضي عاد يملي وقته بإطلاق التحليلات السياسية، والإفتاء في كل المسائل الدينية والاجتماعية، علمه يتسع حتى يبلغ أدق تفاصيل الحياة في الدول الأجنبية، وأدق أسرار الحوادث التاريخية، وخاصة تلك التي لا يعلم محدثه بوجودها، مثل الحرب الأهلية في فرنسا (من لم يسمع بها من قبل، فليسأل عبد المرضي عنها) يعلم تفاصيل حياة الشعوب، ودروب السياسات الحاكمة لدول العالم، يمكن أن يقارن لك بين أنواع الموتوسيكلات المختلفة بذات الثقة التي يحكي لك فيها ما حدث حقا في مفاوضات السلام بين السادات وإسرائيل، ما يحفظه من أحاديث وآيات يساوي ما يحفظه من خطب عبد الناصر. رجل موسوعي المعرفة، ولا يبخل على زملائه بغزير علمه، حتى وهم يتفكهون عليه من وراء ظهره، ويتندرون بكم الأخطاء في معلوماته، ولكن كبر سنه ـ هو ثاني أكبر عمال الوردية بعد عم إسماعيل أكشن ـ وقف طويلا حاجزًا بينهم وبين إحراجه. الليلة انجلى أكثر من أي وقت.. شيء ما سمعه ـ ربما في واحد من البرامج الإخبارية الصباحية التي أدمنها، أو قرأه في واحدة من الصحف التي يتأبطها في كل خطواته ـ عن حدث ما وقع في اليابان وضايقه، لذا ركز كلامه الليلة عن

fb/mashro3pdf

اليابان والحياة في اليابان، وأزمات الحكومة اليابانية. وكما بالغ الليلة في مطاردة أي من يقترب منه من العمال بتلك الفتاوى والنظريات، رافعًا وتيرة صوته لتعلو فوق صراخ الماكينات؛ بالغ العمال كذلك في الهروب منه بأية أعذار مزعومة. عجلة اللعب دارت بسرعتها، وبدا الجميع على وشك الاندماج التام.

ما فعله عمرو النُص لم يكن فقط ملهمًا، وإنما كان نقطة تحول هامة في مسار العمل، اتجاهًا نحو الكارثة الدموية التي ستبدأ تفاصيلها بعد قليل.

رجب وسمعان وظريف...

الشيخ رجب كان أول من واتته فكرة الانتقال بتلك الحالة التمثيلية إلى أبعاد أكثر خطورة. من يره لم يكن سيلمح أكثر من إطار خارجي لرجل ملتح، ضخم الجثة يدير ماكينته، بحماس صامت وتركيز مخلص. ولكن الإطار الخارجي كان يُمزَّق من داخله ببطء واثق، بأفكار تحمل رائحة الدم.

لم ينس - وكيف له أن ينسى - مشادة جرت منذ يومين، بين سمعان حريقة وسعد عبد الرازق؛ سمعان الشرس، منفلت اللسان والذراع، سب الدين لسعد. برغم تلك الجريمة، إلا أن أحدًا لم يغلظه، ولا حتى الأستاذ خليل، الذي اكتفى بمصالحتهم؛ وحتى هذه لم تكن بالمهمة العسيرة، فسعد لم يبد أمام خصمه سوى الخنوع والرخاوة المتذللة. يخافونه ربما، ولكن كيف يكون خوفهم منه أكبر من غيرتهم على الإسلام؟ حتى هو - صاحب مظهر وأخلاقيات الشيوخ - جبن أن يتدخل، وليومين لم يذق

fb/mashro3pdf

النوم، ذلك اللحوح المسمى «ضمير» يقتله. في ذات ليلة الخناقة، حين توضأ وأذن للفجر، ثم وقف كالعادة يصلي وحيدًا - في ركن من المصنع مجاور لدورة مياه الرجال، مفروش بالحصير - بكى ندمًا على عدم تدخله، استغفر الله، وشكى له ضعفه وقلة حيلته. ولكن دموعه، وشكواه، لم تقنعاه هو ذاته، فازداد على كاهليه ضغط الضمير؛ فكيف، وهو فارع الطول قوي البنية، يصف نفسه بالضعف أمام ذلك النصراني؟! ألمجرد أنه عصبي زفر اللسان يستمتع بإهانة الآخرين وإيذائهم، حتى لقبوه بـ «حريقة»؟ ألم يكفه أنه على الحق؟ ألم يكفه شجاعة أن يكون في موقف دفاع عن الإسلام، الذي أهين على لسان ذلك المسيحي، الذي لعن دين أم المسلم، دون أن يغضب أحد من الحضور أو حتى يبدي امتعاضًا؟ كلمات رئيس ورديتهم لم تزل تثير في نفسه غضبًا مخنوقًا حين يستعيدها..

- إحنا هنا في المصنع كلنا إخوات.. ومصارين البطن بتعارك.. مش عايزين بقى نكبر الأمور، وحد يمسك علينا غلطة.

ولكن ماله هو بالآخرين؟ اللعنة على الآخرين.. هو المتدين الملتزم بينهم، هو من يلقبونه بـ«الشيخ»، وهو من كان يفترض به أن يثور، لا أن يتظر الثورة من رئيس الوردية قليل الدين، ديوث الباشا!

في مواقف كتلك، لم يكن الشيخ رجب يملك سوى العودة إلى الوراء، يسرح في نقاط من ماضيه تعيد إليه الثقة، ينتفخ من جديد بفكرة أنه ليس بهذا الضعف الذي قد يمليه الموقف.. ربما هو يؤثر السلامة أحيانًا، وإنما ليس ضعفًا. رجل ولد

fb/mashro3pdf

وتربى في مساكن الصفيح، أشر بقاع الأرض، ورغم هذا خرج منها محترمًا، متدينًا، محافظًا على خلقه، وتقوى الله في قلبه، كيف يمكن أن يوصف بالضعف؟

رجب.. كانت عيناه تتفتحان على الحياة وأول إدراك له بالعالم الخارجي صوت تأوهات المرأة العاهرة في الكشك الملاصق. أمه ـ وهي صاحبة الفضل في تربيته ـ كانت تعلي صوتها بالقرآن لحظتها، لتمنع تسلل أصوات الشيطان تلك لأذني صغيرها. بذلت جهدها لكي تحفظه القرآن ليكون له عونًا. أزمتها أن رجب لم يكن يجيد القراءة، أبوه رفض أن يعلمه، ضربها عندما ألحت عليه، صرخ فيها أن لا حاجة لهم بابن يقرأ ويكتب، وإنما بحاجة لابن يحضر لهما القرش من الهواء. عايرها بعدم قدرتها على إنجاب طفل آخر، فربما ـ بحسب قوله ـ إن كان لديهما ثلاثة أو أربعة ذكور أشداء، كان سمح لأحدهم بالعلام. والأب بالفعل كان يعرف كيف يجعل ابنه يصطاد القرش وهو بعد رضيعًا؛ فأول ما أدركه رجب الطفل عن ذاته، هو ذلك الحرق البشع في ذراعه الأيسر، الذي يعلم ـ كما حكت أمه ـ أنه كاد يسبب له عجزًا تامًا في تلك الذراع، لولا ستر الله..

ـ منه لله المفتري ابن المفتري..

كانت أمه تصيح بها كلما وقع نظرها على أثر الحرق. ما عرفه رجب لاحقًا أن والده هو من حرقه بفحم متقد، وهو بعد لم يبلغ شهره الرابع، ليؤجره بثمن أكبر للشحاذات، يسرحن به أثناء تسولهن. فالعرف يقضي بأن سعر إيجار الطفل

fb/mashro3pdf

ذو العاهة أعلى من إيجار الطفل السليم.

أدركت أم رجب أنها تخوض معركة شرسة وحدها؛ ليس فقط ضد قهر الظروف، وإنما ضد قهر الزوج كذلك. ضاعف هذا إصرارها.. ستنجو بوحيدها من هذه القذارة بأي ثمن، من أكشاك الصفيح، والجارات الداعرات، والأب الذي يتاجر بالمروقات ويحرض ابنه على معاونته. رجب الصغير كان يسكن في الحيرة، يحمل عقله متاهات لا قبل لحداثة سنه باجتيازها. أمامه طريق الأب، وطريق الأم.. تعاطفه مع أمه كان أكبر، كان شاهدًا على بكائها أوقات غياب الأب، تبثه ـ برغم صغره ـ شكواها، تحدثه عن القهر والخداع اللذين سجناها هنا؛ فعندما أحضرها أبوه من بلدها الريفية مراهقة ساذجة، لم يصور لها حقيقة الحياة التي يحياها، ولم تكن تحمل في ذهنها لكلمة «المدينة» مثل تلك الصورة البائسة. تعاطُف رجب مع والدته لم يكن فقط هو سبب اختياره لطريقها. هو لم يحسم أمره إلا بعد واقعة قديمة يذكرها بالكاد، أو هكذا يحاول إقناع نفسه، في حين يحب أحيانا وبشكل سري أن يستعيد تلك الذكرى بعد مرور تلك الأعوام، وإن أعقبها بالكثير من الاستغفار. كانت تجربته النسائية الأولى، وكان قد بلغ الحلم بالكاد، هو حتى لم يدرك أو يعي تلك الحقيقة، ولا حتى أمه، وإنما أدركتها الجارة بعينيها الخبيرتين. لذا هو لم يفهم أنها تستدرجه لكشكها، ولم يفهم ما تفعله بجسده، ولا لماذا تعبث بيديها في هذا الموضع تحديدًا، لم يعي سوى إحساس باللذة صاحب ذلك التدفق اللزج الذي لم يفهم كنهه. لم يكن في عقله أي تصور لما حدث، أو أي مفهوم

fb/mashro3pdf

عن حرمانيته، لم يدرك سوى ثورة أمه وهي تمزق جسده بالخرطوم.. الجارة الوقحة لاقتها في الشارع وأخبرتها بما فعلته. الحقيقة أن الأمر لم يكن سوى لعبة للشأر.. يذكر رجب يوم أن تعاركت أمه مع تلك الجارة، عزبة الصفيح كلها كانت شاهدة على ذلك العراك، الجارة هي التي بدأت، كانت تشكو من المرأة التي تتعمد قراءة القرآن بصوت عال وقت أن يكون معها زبون، اتهمتها بالسعي لقطع عيشها، والأم اتهمتها بإفساد ابنها الطفل، يومها أقسمت الجارة أنها ستريها ما ستفعله بالمحروس ابنها. لم تأخذ الأم التهديد على محمل الجد، حتى فعلت الجارة فعلتها. رجب لم يكن يعي كل هذا، ولم يفهم لماذا تصرخ أمه وهي تضربه بجنون..

ـ نصرتها عليا يا ابن الجزمة..

بعد هذه الواقعة، سار رجب على درب الالتزام التام. عندما اشتد عوده وقوي بدنه، أمنت له أمه عملا في مكابس القطن. كبر رجب في هذا العمل، تحسنت أحواله، وكان من المؤسسين للجمعية التي أنشئت لتشغيل عمال المكابس، بدلا من تحكمات مقاولين الأنفار. عن طريق الجمعية، حصل على شقة في الإسكان الشعبي، انتقل إليها مع أمه، في حين رفض الأب الانتقال. لم يفرق معه كثيرًا أن تهجره زوجته مع ابنها، نوعًا ما شعر براحة أكبر، حتى أنه ـ برغم تجاوزه الستين ـ تزوج في اليوم التالي مباشرة!

استقر الحال برجب وأمه أخيرًا، كما تمنيا طويلا. لم ينقص

fb/mashro3pdf

الأم سوى مشاهدة ابنها عريسًا.. لم تكن تدري أن الخرطوم الذي نال قديمًا من لحم ابنها، نال معه من أحاسيس أخرى فطرية، فما عادت تراوده. اللذة التي تجاورت في روحه مع ندبات الخرطوم جعلته ينفر من النساء. حمد الله أن نقاه من شعور الرغبة، واستمر في طريق الدين، تعلم في مدارس محو الأمية لكي يفك أسرار الكتب الدينية، أطلق لحيته، وبات اسمه وسط الجيران «الشيخ رجب». بعد سنوات قليلة، أجبرت ظروف العمل عمال مكابس القطن على تصفية جمعيتهم.. منهم من تم تعيينه مباشرة في شركات القطن، ومنهم من اختار المعاش المبكر. الشيخ رجب كان من الفريق الثاني، أنفق مكافأة المعاش - حتى آخر قرش - على رحلتي حج له ولأمه، ثم التحق بعدها بالعمل في مصنع البلاستيك.

عبر سمعان أمام رجب لحظتها - قاطعًا مدد الذكريات - بخطوته الواثقة المتبخترة، لا مبال بجريمة ارتكبها طالما أنه لم يجد من يعاقبه أو حتى يحاسبه؛ لا من زملائه ولا حتى من إدارة المصنع. زادت هذه الأفكار جنون الشيخ رجب اشتعالا؛ علام إذن يغضب الله يوميًا بتناول الفراولة، طالما أنها لم تكسبه الشجاعة لنصرة الحق؟ وهو الذي طالما سمع متعاطو الفراولة يتغنون بالشجاعة التي تكسبهم إياها، فلماذا لم يصبه نصيب منها؟ في صلاة الفجر اعتاد أن يسجد مطولاً استغفارًا من خطيئته، برغم أن إمام الزاوية القائمة في ركن منطقتهم أكد له - حين سأله الفتوى - أن لا ضرر ولا حرمة في تعاطي الفراولة...

fb/mashro3pdf

ـ طالما انك بتاخدها بغرض تنشيط الجسم وكسب الطاقة للعمل، مش بغرض تغييب العقل، والعياذ بالله.

ولكن ضميره برغم ذلك كان ينغزه، فيسكته بمداومة الاستغفار. ولكن ما كان من ضميره في اليومين الماضين أكثر من أن يحتمله. وفي هذه اللحظة تحديدًا، كان وقوع بصره على سمعان كسكب المزيد من البنزين على نار مستعرة أساسًا في حلقه.

عندما عرض عليه الأستاذ خليل مسألة الفراولة، كتم الشيخ رجب في أعماقه غضب استشعار المهانة. كيف -وهو الرجل الورع، المتسم بسمات علماء الدين والأتقياء- يحدثه شخص بتعاطي المخدر، ويتوقع منه القبول؟! كان يشعر لحظتها أن ذلك الطاووس، المدعو خليل عبد الحافظ، يسخر منه ومن تدينه. هو يعرف أن خليل شخص حقير، يتاجر في المخدرات، وفي الأعراض إن لزم الأمر. أمثال هؤلاء يكرهون دين الله وكل من اقترب منه.. وكأنها مواجهة مجسدة بلحم ودم مع الشيطان. ما أعجز الشيخ رجب عن الرفض ساعتها هو إدراكه المفاجئ لشدة افتقاره للشجاعة. أحاسيس العجز احتلته يوم أن دس ذلك الصبي في يده ورقة حين خروجه من صلاة العصر ثم اختفى. في الورقة، وجد كلمات تدَّعي النبوة لحمادة السلطان. كاد يمزقه الغضب.. ثار وهاج، وإن حاول ألا يفقد السيطرة على لسانه. أقسم بأغلظ الأيمان أن يدعو الناس في ميكروفون المسجد الكبير بعد صلاة العشاء لمواجهة هذا الافتراء على الله. عزم أن يكون اليوم آخر يوم يرى السلطان فيه الشمس. سيخطب في الناس، سيستفز

fb/mashro3pdf

نخوتهم الدينية صوب ذلك الكافر الفاجر، سيدفعهم لتمزيقه. ولكن صلاة العشاء انتهت، ولم يفعل شيئا.. فقط اكتفى بعرض الورقة على إمام المسجد، امتعض الرجل العجوز..

ـ والله ما اسكت ولو فيها موتي..

ـ أنا معاك يا مولانا.. قُل لي هتعمل إيه وأنا معاك.

ـ بكرة أنا هاخد الورقة دي وأبلغ في مباحث أمن الدولة..

استحسن الشيخ رجب الفكرة ودعمها، وظل يدعو لإمام المسجد بالتوفيق وسداد الخطى. وكانت تلك هي آخر مرة يرى فيها رجب ذلك الشيخ، أو حتى يسمع عنه خبرًا! اختفى الشيخ، ولم تبق منه سوى أساطير معلقة فوق الرؤوس، منها ما يدعي أن السلطان قتله بيديه بعد أن اقتلع عينيه، ويقال أحيانا إنه سلخ ذقنه مع رقعة جلد وجهه، وترك جراحه تتعفن حتى مات، ومن الأقاويل ما ذهب إلى أن الله قد خسف الأرض بالرجل، لأنه كان يعتزم محاربة نبيه. المهم أن اختفاء الرجل بقي حقيقة ملموسة، وهو ما جعل الشيخ رجب يجبن حتى عن التحدث في هذا الشأن مرة أخرى مع أي مخلوق.

الأجواء الغريبة ليلتها، واكتشافهم الجديد في أعقاب عمرو النص، ربما هو ما هيأ للشيخ رجب أن الشجاعة التي لم تكسبه إياها الفراولة ربما يستطيع تخيلها الآن، تمامًا كما تخيلوا السعادة واللهو في اتباع النُص. الفكرة ذاتها أشعلت في أعماقه جذوة جرأة بالفعل.. الآن بات ينظر إلى سمعان، فيكتشف فيه خصمًا هينًا،

fb/mashro3pdf

وأن ثأره للإسلام في متناول يده بالفعل، كأقرب مما ظن. الآن يسخر من نفسه على سابق جبنه أمام ذلك الخنزير؛ بل حري بالجبن أن يصاحب سمعان بدلا منه. رجب كثيرًا ما تساءل لماذا لا يتسم سمعان بذلك الجبن الفطري الذي طالما سمع - وطالما أقسم هو - أن النصارى يتسمون به؟ تمامًا مثل ظريف - النصراني الثاني في الوردية - والذي يبدو أقرب للفكرة التي ألِفها الشيخ رجب - ويحبها - عن المسيحيين؛ بابتسامة ودودة، لا تفارق وجهه بتباين المواقف والأحوال، تترك فيمن يراها ذلك الإحساس بالاصطناع. لسانه المجامل، الذي لا يعرف العيبة كما يقولون، ولهجته التي تحمل رائحة الاستعطاف والانكسار غير المبررين حين يتحدث، يعطياه ذلك السمت التقليدي للرجل المستضعف، الماشي بحذر لصق الحائط، وهي الصورة التي يحب رجب أن يرسمها في ذهنه - وفي أذهان من يتلقفون كلماته من أهالي المنطقة، بصفته رجل ورع يملك العلم بشئون الدين - للمسيحي. ليبقى سمعان حريقة كنموذج استثنائي، يؤرقه منذ لحظة أن لاقاه للمرة الأولى.. نموذج يمثل خطورة على إيمان الشيخ رجب.. نموذج يحطم سلامه النفسي مع الاعتياد، فهو ما كان يكره أكثر من الأمور غير المعتادة أو الاستثنائية. وها هو الآن يضاعف الفجوة الملتهبة بينهما بجريمته الشنعاء تلك (هذه الكلمة تحديدًا: «الشنعاء» هي ما كانت تلازمه طوال اليومين الماضيين، كوصف حتمي لفعلة سمعان، رغم أنه لا يعرف معناها!) الآن يعرف الشيخ رجب يقينًا ما عليه فعله؛ طالما طُلب منه أن يتصنع، فهو لا يريد أن يتصنع سوى دور

fb/mashro3pdf

من أكسبه المخدر شجاعة لا حدود لها. هو لن يتحجج، ولن يرهق ذهنه بالبحث عن سبب للاشتباك مع سمعان.. سيعلن على الملأ وفوق رؤوس الأشهاد أن ما سيفعله به إنما هو ثأر للإسلام.. سيجعل من سمعان أمثولة بين قومه.. سيجعله يرتجف خوفا ـ مثل ظريف ـ كلما مر بقربه مسلم موحد بالله.

الجزء الذي لم يعرفه الشيخ رجب حينها ـ والذي سيتم نجاح تلك المعادلة الناقصة، وصولا للكارثة التي ستحدث الليلة ـ هو أن ما كان يجول في خاطره لم يختلف كثيرًا عما يجول في خاطر ظريف في ذات اللحظة. ظريف كذلك طالما شكا لنفسه أن الفراولة لم تبح له ـ ولو لمرة واحدة ـ بأسرار الشجاعة. هو لا يبحث عن القدر الكبير.. فقط حدًا أدنى من الشجاعة، يجعله يعامل الناس كأنداد له، لا كمصادر تهديد أبدية. كان يكره خنوعه واضطراره لتلك الابتسامة الصفراء، التي لا تمنع عنه أذى، ولا تحميه من مخاوفه، ولا تفعل سوى إقناع الآخرين أكثر بضعفه وجبنه.. يكره ما يبذله من نفاق الكلمات ليتقي شرور الناس.. يكره إذعانه للقب «سيحة» الذي يناديه به زملاء الوردية، والذي يعتبرونه تدليلاً للفظة «مسيحي»! ظريف كان بحاجة لعلاج لجبنه ومخاوفه الاجتماعية المزمنة، والتي كانت السبب الحقيقي لعدم زواجه رغم تجاوزه الأربعين، وليس كونه مخنث كما يشيع زملاؤه وجيران السكن، ولا لأنه مشغول برعاية أمه المريضة بالفشل الكلوي، كما يدعي لمن يسأله عن سبب عدم زواجه.

fb/mashro3pdf

لا يمكن أن نضع أيدينا تحديدًا على أزمة ظريف الأساسية.. هل كونه مسيحي هو ما أصابه بعقدة الأقلية؟.. ربما تكوينه النفسي يحتوي على شيء من أحاسيس الاضطهاد، أو عقد النقص؟.. ظريف الطفل نشأ وتربى وعاش أغلب أعوام طفولته في مجتمعات مسيحية شبه مغلقة؛ سواء في قريته الصعيدية التي تسكنها أغلبية مسيحية كاسحة، أو في المدرسة التابعة للكاتدرائية الكبرى التي التحق بها في المدينة. ربما تأخر وعيه بالاختلاف هو ما سبب له تلك الحالة. الأعوام الأهم في حياته، الأعوام التي تشكل حجر الأساس، عاشها وهو لا يدرك شذوذه عن غالبية المجتمع، لذلك كانت صدمته عظيمة عندما أدرك مفهوم الأقلية. وربما كانت أزمة ظريف النفسية نتاج مسببات بعيدة تمامًا عن عقيدته الدينية.. ربما انطواءه وخجله من الناس، مقابل انفتاح شقيقيه على الحياة، هو ما جعله المرشح الأكبر دومًا لتقديم التنازلات لحساب الأسرة، انتهاء ببقائه في مصر لرعاية أمه، في حين انطلق شقيقاه إلى كندا منذ أعوام، تبلغه أصداء نجاحاتهما في خطابات مجوفة خالية من أي واجبات تجاه أمهم سوى السؤال الروتيني عن الأحوال (بالطبع الواجبات التي افتقدها ظريف في أشقائه هي الواجبات المادية). ظريف حين فاجأه شقيقاه بأنهما قد أنهيا كل استعدادات السفر دون أن يعلم ـ أو أمهم ـ عن الأمر شيئًا، لم يعلق. عندما أجلساه على طاولة في مطعم فاخر، أدرك أنهما يطمعان في كسب تعاطفه ووئد أية معارضة محتملة منه، على وقع رائحة الشواء. يبرران له ـ وهو لم يكن بحاجة لتبريراتهما ـ لماذا عليه هو تحديدًا أن يبقى في مصر..

fb/mashro3pdf

ـ طول عمرك شهم وجدع يا ظريف..

ـ أومال.. ما حدش فينا يقدر يشيل أمانة أمنا غيرك يا ظاظا..

لم يكن أي منهما يدرك أن السفر كان هو الحلم الذي عاش ظريف لأجله. هما بالتأكيد غير مسئولين عن عدم إدراكهما هذا، فظريف هو من اختار كتمان الحلم في صدره، معتقدًا أن ظروف مرض أمه تمنعه حتى من البوح برغبته في المغادرة. والآن، هو عالق إلى الأبد هنا مع أمه، ومع وظيفة حقيرة في مصنع بائس، لا يعرف هو نفسه إن كان خوفه من الناس أمرًا أصيلا في ذاته، أو هو تحوير لكراهيته لهم، وهل قراره بعدم الزواج هو فعلا بسبب الخوف، أم أنه فقط لا يرغب في المزيد من الروابط التي تكبله بهذا البلد.

ظريف لم يعمل في هذه الوردية إلا مرغمًا، كان يخنقه العمل وسط تلك المجموعة التي طالما اعتبرها حثالة المصنع. ولولا فرصة العمل الصباحي كفراش في مدرسة خاصة، ما كان طرق ذات يوم مكتب الأستاذ خليل، ليسأله مطأطئ الرأس -وهو في أغلب الأحوال مطأطئ الرأس-:

ـ كنت عايز.. لو ممكن يعني.. اتنقل.. وردية الليل...

تحقق له ما أراد، فكان راتبه من المدرسة مع راتب المصنع بالكاد يغطيان مصاريف علاج أمه، على رغم من المساعدات التي يتلقاها من الكنيسة، فأدرك أن أمر الزواج يزداد استحالة مع الوقت.

fb/mashro3pdf

في اليـوم الأول لـه في تلـك الورديـة، كانـت تجربتـه الأولى مـع الفراولـة، بـل ومـع المخـدرات أي كان نوعهـا. كان متلهفـا للتجربـة، يبحـث عـن نسـيان ـ ولـو مؤقـت ـ لحالـه، وشـجاعة مطلوبـة تعينـه عـلى خـوض غـمار الصراعـات الاجتماعيـة في ذلـك المـكان، الـذي طالمـا شـعر أنـه لا ينتمـي إليـه. ولكنـه لم يجـد مـا تمنـاه؛ فأكثـر مـن الطاقـة التـي تجعلـه يعمـل كحـمار لم تمنحـه الفراولـة شـيئا. الليلـة فقـط يشـعر ـ في فرصـة نـادرة ـ أن الكـرة صـارت في ملعبـه، فـإذا كان سـيدَّعي، فعليـه أن يختـار الشـجاعة.

مدفوعًـا برغبتـه في اللعـب، رفـع عينيـه في وجـه محدثـه للمـرة الأولى، حـدق في عمـق عينيـه دون أن يرمـش، والغريـب أنـه لم يخـف. اسـتطاع أن يجـري حـوارًا كامـلا مـع رمضـان بليـة دون أن يتسـلح بتلـك الابتسـامة البلهـاء، بـل وبوجـه منقـوش تجهـمًا، حتـى أن بليـة سـأله أكثـر مـن مـرة:

ـ مالك يا سيحة؟

فلم يزد ظريف عن..

ـ ولا حاجة...

بعصبيـة أسـعدته وأقنعتـه بقدراتـه كممثـل. كان متشـيًا، وتمنـى ألا تنتهـي تلـك الليلـة، وهـو يسـير بـين الماكينـات منفـوخ الصـدر متبخـترًا (الحقيقـة أنـه كان ـ دون أن يشـعر ـ يقلـد سـمعان حريقـة في مشـيته) مسـتمتعًا بنظـرات الاسـتغراب في عيـون الزمـلاء، الذيـن ربـما يـرون للمـرة الأولى قامتـه مفـرودة، وكأنـما اكتشـفوا الآن فقـط، وبعـد طـول العـشرة في الورديـة، أن ظريـف طويـل القامـة بحـق!

fb/mashro3pdf

وحين اصطدم كتفه بالشيخ رجب أثناء مروره بجوار الماكينة التي يعمل عليها، وبرغم مبادرته بـ..

ـ لا مؤاخذة..

إلا أنه كان يدرك أن ذلك الاحتكاك لم يكن عفويًا، فقد تعمد ـ كما بدا له ـ الاصطدام بالشيخ رجب، وكأنما يعلن له عن وجود ذاته الجديدة.. فظريف كان يمقت الشيخ رجب كما لم يمقت أحدًا في حياته، وربما ضايقه أن الشيخ رجب تقبل اعتذاره، بل وكأنما لم يسمعه، بل وحتى لم يشعر بالاصطدام من الأساس، فقد كان ذهنه ـ وروحه ذاتها ـ معلقًا لحظتها بدنو تحقق انتقامه المنشود.

لفترة دارت نظرات الشيخ رجب المفتونة، في تأرجح منتظم بين قطعة الخشب الملقاة على الأرض بإهمال، من مخلفات صندوق ضخم كسره من فترة، ليستخدم ألواحه الخشبية كدعامات أرضية لماكيته القديمة المتهالكة، في محاولة لتقليل ارتجاجاتها.. وبين القضيب الحديدي الذي هو ذراع تشغيل ماكيته، والذي يسهل عليه حل الصامولة التي تربطه بالماكينة لانتزاعه. قلة خبرته في العراك هي ما سببت تلك الحيرة، فهو لم يكن يعرف الطريقة ـ أو السلاح اللازم ـ لتأديب سمعان دون أن يحدث به ضررًا كبيرًا من نوع ما يسمونه العاهة المستديمة. خشي أن يكون آداؤه لدور المغيب متقنًا لدرجة أن يكون هو سبب تعطل وعيه ومداركه عن توصيله للجواب الصحيح لحيرته. في النهاية، وجد نفسه ـ ودونما وعي منه، وكأنما يده تلبستها إرادة منفصلة- يحل صامولة ذراع الماكينة. في هذه اللحظة، وجد عبد المرضي في قفاه

fb/mashro3pdf

يسأله إن كان عطب ما أصاب الماكينة. أجفل الشيخ رجب وهو يتساءل متى ومن أين ظهر عبد المرضي، الذي هرع ركضًا ـ لطول ما تمنى أن تتعطل إحدى الماكينات ـ بمجرد أن لمح الشيخ رجب منكفئا على ذراع التشغيل في ماكينته.

عبد المرضي هو المسئول عن إصلاح وصيانة الماكينات في تلك الوردية؛ من يدبر له سوء حظه عطلا في ماكينته يلعن الساعة التي أوقعته في شرك عبد المرضي. سيكون عليه ـ وبطول ما تستغرقه عملية الإصلاح من وقت ـ أن يسلم أذنيه لثرثرة عبد المرضي المحملة بعصارة علمه وثقافته، وسيكون عليه أن يحتمل ذلك بصبر وود، بل وربما ـ وهي كذلك فرصة للإفلات منه بضع دقائق ـ أعد له كوبًا من الشاي بنفسه، من البوفيه الذي يهجره العامل المسئول عنه قبل تلك الوردية، وإن تركه مفتوحًا، وترك بعض اللوازم خارج الخزانة، مما قد يحتاجه عمال الوردية الأخيرة لخدمة أنفسهم.

الشيخ رجب كان عليه أن يتخلص أولاً من لزوجة عبد المرضي قبل المضي في إتمام ما بدأه. لم تشفع له كلمة...

ـ بسيطة..

التي رددها بعصبية مقتضبة، فلم تفلح في إسكات فضول عبد المرضي، الذي ظل يردد أمامها بلا كلل..

ـ وريني بس إيه الموضوع؟.

تأفف الشيخ رجب بقوة لم تفلح في إثارة وعي عبد المرضي

fb/mashro3pdf

ليدرك أنه غير مرحب به في تلك اللحظة. فلما لم يجد بدًا، ذكَّر نفسه بمقتضيات الدور الذي يلعبه، فالجريء لا يجب أن يستشعر توترًا أو حرجًا لأي سبب. لذا حين أتم نزع القضيب المعدني استوى واقفا، دفع عبد المرضي برفق إلى خارج مجال حركته، وهو يقول:

- إبعد عني الساعة دي يا حاج..

تابعه عبد المرضي بعين الذهول، وهو يراوغ تقارب الماكينات بجسده المديد؛ الخطوات الجريئة الحاسمة، والقضيب المعدني المشرع في يده، دفعا عبد المرضي لاتباعه. رآه يدنو من سمعان المنكفئ على ماكينته موليًا ظهره لما يحدث.. كانت المسافة التي تفصلهما لا تجاوز المتر، والمسافة التي باتت تفصلهما عن مرمى أنظار الحاضرين - المتابعة دهشة - لا تجاوز المليمترات. حينها صرخ الشيخ رجب:

- بتسب الدين يا كافر يا نجس!

أجفل سمعان، فتلقى ضربة لم يتوقعها من جسم معدني ثقيل على كتفه الأيسر. الهبوط القوي للقضيب المعدني على قمة كتف سمعان بزاوية مستقيمة جعلته يثق أن ما سمعه هو صوت تفتت شيء ما من عظام الكتف. لو أتاح الشيخ رجب فرصة للمتابعين لأدركوا هذا بدورهم، من التأرجح الحاد لذراع سمعان، وكأنها لا يثبته شيء في جسده. ربما الشيخ رجب (هكذا فكر بنفسه...) لم يكن مخلصًا في تمثيل دور المغيب للدرجة التي تزين له ضرورة أن يهبط قضيبه المعدني على رأس سمعان

fb/mashro3pdf

فيقتله، ولكنه اكتفى ـ رغم أسفه ـ بضربة الكتف، وإن استغل الذهول الذي جمد سمعان وكل الحاضرين، لينهال بالمزيد على كتفه الآخر، وخصره، وساقه أحيانًا. حينما صرخ سمعان، وبان للجميع اعوجاج حاد وغير طبيعي في ساقه ـ وربما يكون ما شاهدوه يبرز من بين الدماء التي بللت ساق سرواله هو جزء من عظمة الساق ـ قرروا التدخل. حملوا الشيخ رجب المتفض غضبًا بعيدًا، وهو يواصل صراخًا بدأه ونسي أن يقطعه..

ـ بتسب الدين يا نجس يا ابن الكلب..

وهو لا يداري حسرة تملكته..

ـ يا ريت كان معايا سكينة.. كنت قطعت لسانك يا نصراني يا خول..

تحلق عدد من العمال حول جسد سمعان الهامد إلا من تأوه خافت وانتفاضات ألم، عاجزين عن التصرف. من العمال من نجح بصعوبة في انتزاع القضيب المعدني من يد الشيخ رجب..

ـ وحد الله يا شيخ..

ـ صلي ع النبي يا رجب..

واحد فقط منهم ـ رمضان بلية بالطبع ـ هو من صعد سلم الإدارة المعدني متعثرًا في سرعته، كان يمكنه أن يرى الأستاذ خليل نائمًا على كرسيه من وراء الزجاج.. طرق على الباب بقوة، فانتفض الأستاذ خليل ولاقاه بنظرات متسائلة.. لم ينتظر بلية جواب أو إشارة، فتح الباب وهو يصرخ بكلمات متقطعة بحكاية ما حدث. أسرع الأستاذ خليل ـ تسبقه وجفات القلب

fb/mashro3pdf

ـ إلى خارج حجرته، حيث السياج المعدني للممر. أول ما صدم نظراته كان الجسد الملقى أرضًا، ثم تبين العمال المحاصرين للشيخ رجب، ولكن موقعه العالي هيأ له استطلاع تفاصيل غابت عن إدراك العمال تحته.. ظريف، الذي حانت لحظته ليدفع عجلة الأحداث، كان يتقدم من الجمع متسحبًا من جانب غير مرئي، قادمًا من ناحية حجرة البوفيه. ظريف، الذي وجد أخيرًا الباعث الذي يسهل له توصيل آداءه التمثيلي لقمة الانفعال، كان يحاول أن يخفي عن الأنظار شيئًا ما في يده.. ظريف كان يوجه كامل قدرته على الاصطناع صوب الشيخ رجب، كهدف لبلوغ شجاعته المدعاة مداها.. ظريف كان يكره الشيخ رجب.. يكره تعاليه، ونظرة الاشمئزاز في عينيه؛ سمعه مرة يقول للأباصيري إن لظريف رائحة نتنة كمثل باقي قومه. ظريف كان يملك الدافع.. الثأر؛ ربما تتحول بعدها لقضية رأي عام، وربما يجمل الإعلام ما حدث باسم الفتنة، وسيقول إن المسلم هو من بدأ، وستفي ضخامة جثة رجب ولحيته الشعثاء بوصفه بالمتطرف الإرهابي، لتجعل موقف ظريف هو الأقوى. ظريف يملك الآن الجرأة المطلوبة، والعقل المغيب اللا لوم عليه.. ظريف يتقدم الآن من الحشد، لن يشتبه أحد به أو يعوق تقدمه حتى الوصول إلى مركز الدائرة، حيث رجب يلهث انفعالا. ظريف في لحظة مناسبة وضع سكينه في بطن رجب. كان يعلم ـ كما نعلم جميعًا ـ أن البطن ليست موضعًا ملائمًا لتسديد طعنة قاتلة، ولكنه ـ بقليل خبرته في هذا المجال ـ اختار البطن لأنها موضعًا أكثر ليونة وطراوة من الصدر أو الرقبة مثلا، حيث خشي أن

fb/mashro3pdf

تخذله قوته عن إتمام غرس سكينه في أي موضع منهما. ولكن البطن لم تخالف تقديره، فتلقت السكين بسلاسة ودفء، ودون أن تفجر الدماء، وإنما بقعة حمراء بدأت ترتسم ببطء ساخر. أغراه هذا بسحب السكين ومعاودة غرسه.. أعجبه الأمر؛ لا شك في هذا.. فبرغم الزحام حوله، ووشيش الغضب في أذنيه، إلا إنه ظن أنه سمع صوت تمزق أنسجة اللحم حول مسار السكين. كان مأخوذًا بقوته وقدرته على تمزيق خصمه، حين سحب سكينه وغرسها في الرقبة هذه المرة، لتفجر الدماء أخيرًا وتصيب وجهه، ليدرك أن حقيقة الأمر ليست بذات صعوبة تخيله!

حدث كل هذا في ثانيتين، وقبل أن يفيق أحدهم من الصدمة كان ظريف يجري هربًا عبر باب المصنع.

إلى هذا الحد، والجريمة لم تكن لتتعدى حادثًا طائفيًا بسيطًا، يمكن حتى ألا يلفت انتباه الرأي العام وبرامج الكلام. فحدث طائفي يروح ضحيته شخصان فقط لا يستحق عناء إلقاء الضوء عليه، خاصة أن أحدهما مسلم، والثاني مسيحي، أي أن النتيجة في النهاية هي التعادل!.. ولكن المشكلة التي قد تفرض نفسها هنا أن المسيحي لم يمت أصلا، وإنما فقط أصيب، حتى وإن بلغت إصاباته حدًا بشعًا، فمبدأ التعادل لم يتحقق بعد. هذا قد يحرك عجلة الفتنة الحقيقية، خاصة وأن للشيخ رجب عزوة من أبناء هيته، لن يرضوا بأن يسقط أحدهم قتيلا على يد مسيحي. ربما يهدئهم قليلا إن مات مسيحي في المقابل، لتصبح النتيجة أكثر قبولاً. يمكن إذن أن نتخيل أن هذا هو الدافع الأكبر لدى

fb/mashro3pdf

الجمع لحظتها، لاقتناص ظريف وتمزيق لحمه.

في حين تمكن شلل الذهول من وعي الحاضرين لفترة، كان الأستاذ خليل هو أول من تكلم، حين صاح بهم من علياته:

ـ وراه.. هاتوه.. ما تسيبوهوش يهرب!

أفاقوا على نداء مديرهم، فأطلقوا جميعًا سيقانهم مرعين عبر الباب، وحتى بلية عاد يهبط السلم المعدني قفزًا بجسده الضئيل كالقرد، وغاب خلفهم. لحظتها انكشفت لعيني الأستاذ خليل مساحة المصنع خالية من أي بشري سوى جسدين، أحدهما ممزق لم تزل الدماء تندفع منه، والآخر هامد مخلوع الكتف، مهشم الساق، يصدر تأوهات خافتة تتعالى كل حين. أسكن المشهد في صدره رهبة فعاد إلى حجرته، ودون أن يدري سببًا أغلقها بالمفتاح، للمرة الأولى ربما في تاريخ المصنع.

الأستاذ خليل قرر حينها أن الوقت قد حان ليتصل بصاحب الشركة، فإن كان ولا بد من الفضيحة واستدعاء الشرطة إلى المصنع، فلابد وأن يبقى صاحب الشركة على علم. وقف في النافذة المطلة على الفناء، كان يتأمل ما يحدث بينما الصوت الآلي المنبعث من هاتفه الرابض فوق أذنه اليمنى يخبره بأن هاتف رئيسه يرن. لم يكن من أثر لظريف في كامل أركان الفناء، فقط كتلة بشرية متحلقة حول السلطان الجالس أبدًا ذات الجلسة المتراخية أمام ناره. حركة الأجساد وارتفاع الأذرع وانخفاضها في الهواء أدلة على عصبية تسكن النقاش الجاري، وما كان ما يبلغ أذنيه من ثثار الحروف يحملها الهواء بكافٍ لإشباع فضوله.

fb/mashro3pdf

في حين تكفل انقطاع رنين الهاتف دونما رد بإشعال كامل فتيل أعصابه. من جديد هو وحده في هذه المصيبة.. تخيل غضب صاحب الشركة ـ العصبي المتهور ـ إن هو علم أن الشرطة غزت مصنعه في غير حضوره وبغير علمه. خشي أن يكلفه هذا وظيفته ومستقبله الذي بدأ يشرق بعد طول عناء، فعاد يكرر محاولة الاتصال.

* * *

صاحب الشركة لحظتها كان متراخيًا على المقعد الجلدي الوثير؛ يعشق هذا المقعد الذي اشتراه ليكمل به أثاث حجرة نومه لغرض واحد فقط؛ يحب حين يغوص جسده بداخله، ويحتويه جانبيه المنفوشين، ويريح رأسه للوراء فوق طراوة مسند الرأس، وكأنما هو محلق في هواء، أو طاف على سطح بحر هادئ رجراج، بينما ـ كما يحدث الآن ـ تركع عند ساقيه فاتنتان عاريتان، تتبادلان لعق وامتصاص عضوه. لحظة صوفية تخلعه من دار الفناء ليطفو على كامل أنهار الجنة مجتمعة. أحيانًا كان يضبط نفسه في لحظة نورانية كتلك يسبح بحمد الله، وفي مرة ـ وكانت الفتاة بارعة ـ أدمعت عيناه تأثرًا بعظمة نعم الخالق. كان يردد دائما أن لا شيء يبعث الصفاء في الروح والجسد أكثر من فعل جنس لا تحرك فيه عضلة واحدة.. أن تجد من يقود غريزتك بحنكة ودراية، يخرجها من جسدك، يجردها، ينقيها، يعيدها إلى شكلها البدائي البكر، ثم يدللها ويهدهدها، حتى يذهب روعها ويسكن جوعها، فتعود مجددًا تنام في جسدك

fb/mashro3pdf

شبعانة راضية. مهمة قدسية هي، حقيقة بالملائكة. لذا، يمكنك أن تتخيل مدى الكدر الذي أصابه حين رن هاتفه.. كان كمن ينتزع من جلده، صرخ في الفتاتين أن تتوقفا، طلب من إحداهما بأدب أن تناوله الهاتف من جيب البنطلون الأيمن.. كانت شاشة الهاتف تعلن اسم «خليل المعرص» (هكذا سجل صاحب الشركة اسم الأستاذ خليل على هاتفه). عبث بشاشة الهاتف، فضبطه على وضع الصمت، ثم ألقاه بعيدًا وهو يعتذر للفتاتين، ويطلب منهما خجلا أن تواصلا عملهما.

إسماعيل أكشن وآخرون...

في البدء، لم تثر اللعبة خيال عم إسماعيل أكشن، ربما هو - للأمانة - لم يفهمها أصلا.. هو لم يعتد أن يطالبه أحد باستدعاء خياله الخاص، حتى تجاربه التمثيلية السابقة لم تزد عن أداء حركات وانفعالات مأمورًا بأدائها، فما كان بحاجة سوى إلى قدر كاف من القدرة على الطاعة العمياء للنجاح في مهنته ككومبارس صامت في السينما، بل ولكي يصبح كذلك من أفضل العاملين في تلك المهنة، حتى كان بعض مخرجي السينما في السبعينات والثمانينات يطلبونه بالاسم في أفلامهم. وكم كان يحب هذا.. أن يكون مميزًا عن زملاء المهنة؛ وما أكثرهم.. أن يتم التعامل معه كشخص مستقل، له هوية منفصلة واسم خاص به، لا كمثل معاملة القطيع التي يناله باقي الكومبارس، على أيدي ريجيسيرات السينما ومساعدي المخرجين المتعجرفين دائمًا.

ولكن لحظة أن شاهد آداء عمرو النُص في بدء الوردية، شعر

fb/mashro3pdf

أنه الآن فقط فهم قواعد اللعبة، وندم على الدقائق التي أضاعها بعيدًا عن مشهد الصدارة والقيادة الفنية، لمجموعة يفترض أن تتحول لفرقة مسرحية تؤدي عروضًا واقعية لليلة واحدة. قال لنفسه على وقع الهتاف الجماعي الذي هز أركان المصنع: «اشتغلت.. اشتغلت» إن الفرصة قد واتته أخيرًا ليلعب دورًا متكاملًا، بل وربما يكون دور بطولة كذلك. فهو حين فهم قواعد اللعبة، وفي لحظة نادرة من الصراحة مع الذات، أدرك أنه لعبها كثيرًا من قبل. لعبها مثلا حين ظل يردد ـ طوال عقود ـ على كل اذن تقابله، تفاصيل تصوير المشهد الذي يعتبره أهم إنجاز في حياته، حين خرج من البحر حاملا تلك الممثلة الشابة ـ وقتها ـ والتي كانت جميلة جميلات السينما في السبعينات، سار بجسدها الهامد العاري معظمه ـ إلا من ستر المايوه البيكيني ـ وقد أنقذها من الغرق ـ كما يفترض دوره الصامت ـ قبل أن يتلقفها بطل الفيلم من يديه ليكمل معها فيلمها، ويخرج إسماعيل أكثر من الكادر ومن الفيلم بأكمله. رغم أن كل معارفه شاهدوا هذا المشهد عشرات المرات، ورغم أنهم كثيرًا ما نغزوه بمزاح يحبه، حين يدَّعون الحسد لملامسته للجسد الفاتن العاري، فيهب هو في وصف نعومة وطراوة فخذيها، الذين لفهما بذراع، وخصرها الذي أحاطه بذراع آخر، ونهديها اللذين دفنا فتنتهما في صدره العاري، فكان كل ما فيها، كما يصف دائما..

ـ كهربا.. كهربا!!!..

ولكن الحقيقة أن كل هذه الحكايات لم تزد عن ادعاءات، ودور اختار أن يلعبه فيما يفترض أنها حياته الواقعية. فالحقيقة أنه لم

fb/mashro3pdf

يشعر بأي شيء والممثلة بين ذراعيه.. لم يكن في ذهنه سوى أن يؤدي المشهد كما طلب منه تمامًا، حتى لا يخطئ فيعنفه المخرج، أو يطلب من الريجيسير استبداله. حرصه ألا تنزلق البطلة من يده، وقد بلل ماء البحر جسدها فجعله زلقا، أغلق حواسه في وجه أي احتمال للشعور بمتعة ملامسة جسدها، فكان وكأنه يحمل كرسيًا أو طاولة، مجرد عدة شغل كتلك التي يستخدمها في عمله الأساسي في المصنع.

موضوع التمثيل برمته لم يكن أكثر من عمل. بالتأكيد لم يحلم إسماعيل أكثر يومًا ـ ولا حتى في أيام شبابه الأولى ـ بأن يصبح نجمًا سينمائيًا، فهو طالما اعتقد أن للأحلام سقفًا تشيده الظروف الحياتية للشخص. آمن منذ طفولته بالأمثال التي تحكي عن خطورة النظر إلى أعلى، فإلى أي مدى يمكن أن تصل أحلام الابن الثاني لنجار الطبليات الفقير، الذي يملك غيره تسعة من الأبناء، العشرة جميعهم موزعون بالتساوي بين زوجتين، إحداهما في البلد الساكنة مكانًا ما بالصعيد، والثانية ـ وهي أم إسماعيل ـ ساكنة وأبنائها في قبو بناية قديمة اختفت الآن ـ وكل ما جاورها ـ مفسحة المجال لأبراج أعظم ارتفاعا وغطرسة. إلى أي مدى يمكن أن تصل أحلام شاب لم يتعلم التعامل مع الحروف والكلمات ـ ولم يضايقه هذا يومًا ـ ولم ينجح في اكتساب صنعة من العشرات التي دُفع لتعلمها قسرًا منذ طفولته. شاب بلا تعليم، وبلا صنعة، وبلا موهبة، معلق في مرحلة تكوين مؤجلة تحت غبار الحرب، أربع أعوام قضاها على الجبهة في انتظار معركة العبور، كحياة منفصلة، أو كفاصل قطع حياته

fb/mashro3pdf

عرضًا. عندما عاد لدنياه منتشيًا بالانتصار، متوقعًا أن تنفتح أمامه آفاق ما كان يحلم بها، مستشعرًا بأعماقه طاقة تحقيق المعجزات، اكتشف أنه ترك في بيته الفقير الكئيب روحًا قديمة لشاب لا يملك شيئا من الدنيا، ولا حتى الحلم. مكرهًا أعاد ارتداءها، وعاد من جديد يبحث عن الوجود المستحيل.

كان خارجًا يومًا من هذا المصنع، بعد انتهاء وردية الصباح ـ عمله بالمصنع كان كقشة لإنقاذ غريق، تعلق بها بروحه، وحاول أن يستخدم كل قدراته على تنفيذ الأوامر بإخلاص، لكي يستمر وينشئ لنفسه حياة خاصة ـ عندما سمعهم في الشارع يتحدثون عن تصوير فيلم سينيمائي أمام بوابة الميناء. من باب التسلية هرع مع زملائه للفرجة على هذا الحدث الاستثنائي. عندما بلغا تلك البقعة التي تحولت إلى خلية نحل تدور حول لقطة من الماضي، حيث سيارات عتيقة، وصبية ورجال متناثرون بالطرابيش الحمراء، ونسوة بالعباءات الفضفاضة والبراقع البيضاء. سحره شيء ما في هذا المشهد، فلم يستطع مقاومة النداء الذي أطلقه ذلك الرجل في المتحلقين وراء الحواجز المقامة لعزل موقع التصوير؛ كان يطلب المزيد من الأفراد للتصوير، يريد ثلاثة شبان بالتحديد ككومبارس صامت، مقابل جنيه ووجبة غداء.

لم يشعر إسماعيل بنفسه إلا ويده مرفوعة في الهواء وسط عشرات الأيدي المرفوعة. تأمل الرجل وجوه الشباب المتقدمين لثانيتين، ثم أشار لثلاثة منهم، ومن بينهم إسماعيل. كانت لحظة للتسجيل في التاريخ، لحظة أن ابتسم له الحظ لمرة أولى،

fb/mashro3pdf

وربما وحيدة كذلك. عندما انتهى من تصوير المشهد، وبعد ثلاث ساعات من الوقوف المتواصل، وتلقي الكثير من السباب والإهانة إذا بدرت منه أدنى حركة دون أوامر، ورغم أنه لم يتقاض سوى سبعين قرشًا، ووجبة الغداء التي وعد بها لم تكن سوى شقة فول، ولكنه كان سعيدًا. شعر أنها وظيفة مناسبة لمؤهلاته، وكأنها وظيفة الأحلام. ولم يغادر المكان إلا وقد ترك بياناته ورقم هاتف البقال القريب من بيته للريجيسير.

أكبر دور لعبه إسماعيل في واقعه ـ وهو ما أدركه الآن فقط ـ كانت بعد وفاة ابنه الوحيد؛ بدءً من ادعائه الحزن، في حين أن قلبه لم يخل من راحة، فما كانت أعوام ابنه الثلاثون في هذه الدنيا سوى جحيم لا يطاق لأب يئس من إصلاح ابنه أو دفعه في طريق بعيد عن الشر. ثلاثون عامًا من الاعتياد على الجري وراءه في أقسام الشرطة والنيابات، وفي مصحة للمدمنين ـ مرتين أو ثلاثة ـ بلا فائدة. كم مرة دخل عليه محمولا آخر الليل، وقد أصيب في عراك أو سقط مغشيًا عليه بإفراط في الشرب. حتى لما زوجه وأبقاه معه في البيت لم ينصلح حاله، رغم أن الزوجة كانت من اختيار الولد. الأب في البدء كان ميالا لرفض الزيجة نهائيًا، فالبنت التي اختارها ابنه من سكان عزبة الصفيح. هنا تصبح أعراف مثل السؤال عن العروسة وأهلها دربًا من العبث، فسكنى الصفيح وحدها تكفي كوصمة من عار غير قابلة للمحو. ولكن زوجته لم تدعه إلا وقد حنت قلبه وأقنعته بأن البنت تريد أن تعيش، وهي القادمة مما يشبه المقابر أو حاوية نفايات بشرية. بالنسبة لبنت كتلك، سيصبح السكن في بيت

fb/mashro3pdf

إسماعيل أكثن الضيق كحياة القصور، واللقمة البهتانة التي ستأكلها عندهم ستكون بطعم أجمل حلم راود الفتاة يومًا..

- بنت زي دي سهل تبقى خاتم في صباعنا.. وسهل تملكها بالجميل..

والبنت لم تخيب رجاء حماتها، ولكن بقيت الأزمة لا تتزحح، ماكثة في روح الابن المسكونة بالشر، فلا طاعة وحنان زوجته، ولا براءة طفليه الذين تركهما وراءه يتهجيان أول حروف الحياة أفلحوا في تغييره، حتى قتلته المخدرات في عز شبابه.

المشكلة التي واجهت إسماعيل وزوجته وقتها كانت في ضرورة - كما تملي التقاليد - أن تعود أرملة ابنهم لبيت أهلها، فقد مات زوجها وما عاد لها من حق في هذا البيت. معنى هذا أن يحرم إسماعيل من أحفاده، وأن تحرم زوجته ممن تخدمها وتساعدها في البيت، فإن هو ضغط على أرملة ابنه للبقاء، فهو بهذا وكأنما يسعى لحرمانها من فرصة أن تعيش حياتها وتتزوج من جديد، وهي الصغيرة الجميلة. حين تجرأ وحدثها بالأمر، فاجأته برغبتها في البقاء، أو تحديدًا بعدم رغبتها في العودة لأبويها. أبواها كذلك ارتاحا لقرارها، فلم يكونا مستعدين لأن يعودا ثانية للإنفاق عليها، بل وعلى طفليها كذلك. المشكلة الوحيدة التي أرقت إسماعيل أكثن لشهور هي حرمان البنت من حياتها الطبيعية! فبالتأكيد في يوم ما ستوق إلى وجود رجل في حياتها، وربما حينها قد تتركهم لسبب كهذا، وهو لن يستطيع حينها أن يقف في طريقها. الحل الوحيد الذي وجده إسماعيل منطقيًا، هو

fb/mashro3pdf

أن يضاجع أرملة ابنه! لم يجد معارضة للفكرة من زوجته، فقد وجدت فيها سبيلاً للحفاظ على البنت التي تخدمها، وفي نفس الوقت إرضاءً لشهوة زوجها التي أهملتها منذ زمن، فاقدة أية رغبة في الرجال، وهو ما بسببه كثيرًا ما طلبت من الله المغفرة، فهي تعي جيدًا أن في تمنعها على زوجها جريمة تغضب الله. فلما فاتحت الزوجة البنت في الموضوع، هاجت وصرخت وسبت الأديان، ونهضت لتحزم أغراضها عازمة العودة لبيت أهلها. ولكن البنت حقيقة ما كان لديها رغبة أو استعداد للتضحية بحياتها المريحة في هذا البيت لأي سبب، فلماذا لا تنتهز هذه الفرصة التي ستقدم لها ولو حدًا أدنى من الرضا والتنفيث عن أنوثتها، حتى يرسل إليها الله نصيبًا جديدًا. حماتها كانت تعي هذه الحيثيات، لذا لم تندهش عندما عادت البنت لتجلس بجوارها على الكنبة، صامتة في البدء، قبل أن تقطع الصمت بجملة واحدة..

- إللي تشوفيه يا حاجة..

استقر الوضع بثلاثتهم من يومها على حالة من القناعة الصامتة بما انتهوا إليه، ولليوم لم يزل إسماعيل يذكر لحظة أن استقبلته زوجته وهو خارج من الحمام، بعد أن وضع عن جسده جنابة اللقاء الأول مع أرملة ابنه بضحكة ماجنة ومزاح مهين..

- صغرت عشرين سنة يا إسماعيل.. الظاهر إن قِلة النيك هي إللي كانت معجزاك بدري يا راجل يا وسخ!

fb/mashro3pdf

كانت أول مرة ـ بعد عشرة دامت لأكثر من ثلاثين عامًا ـ يسمع زوجته الوقور الورعة تتفوه بألفاظ كتلك، بل وتوجهها له كسباب قذر. لم يعلق، وادعى حتى أنه لم يسمع، فالموقف ـ حتى وإن رضت به ـ صعب عليها، وهو لا يتوقع منها أن تكون بنفس موهبته في التمثيل.

هكذا كانت حياة إسماعيل أكشن، التي لم يسبق له أن تأملها بذات الوضوح، كما فعل الليلة.. فلما صارت تلك اللحظة العصيبة، وسط الصراخ والتوتر والدماء التي سالت، أدرك أنه خلق ليلعب تلك اللعبة، بل وفي لحظة كهذه تحديدًا، يصبح واجبًا معلقًا في رقبته أن يشارك في اللعب، لذا كان هو من تقدم الجمع الغاضب الذي انطلق إلى فناء المصنع خلف الهارب. كان يجري داهسًا أعوامه الأربع والستين تحت قدمي حماسته، يستشعر في بدنه طاقة المخَدِّر، يسعى ببصره وراء ظريف في الفناء الخالي من أي بشر سوى حمادة السلطان يشرب شايه. باب المصنع الخارجي مغلق كالعادة، لا يفتح سوى بمفتاح يأبى الأستاذ خليل أن يحمله شخص سواه؛ ينتظرونه صباحًا في طابور أمام البوابة حتى يغلق مكتبه على مهل، ثم يهبط ليتمم على عددهم، قبل أن يتقدمهم بخطوات متأنية نحو البوابة، يفتحها فيتقدموه مغادرين بلا تعجل، في حين ينتظر هو قدوم موظفي الوردية الصباحية لتسليمهم العمل. ولكن طالما أوان الوردية لم ينتهِ، فالبوابة ستبقى مغلقة، والسور أعلى من أن يطاله ظريف. الإجابة المنطقية الوحيدة لسؤال اختفائه أن يكون مختبئًا وراء

fb/mashro3pdf

واحدة من سيارات الشركة النائمة في جانب من الفناء. ولكن كل الأفكار والاحتمالات كانت تقود إسماعيل أكثر لتصرف واحد منطقي ومقبول؛ يجب أن يسأل السلطان. أشار بيده في الهواء صائحًا في الجمع كقائد حربي محنك..

ـ تعالوا ورايا..

لما بلغوا مجلس السلطان، عدل جلسته ـ بعد أن صب كوب الشاي الجديد ـ ليتخذ وضع الاتكاء فوق الوسادة الضخمة التي افترشت الأرض تحت ذراعه. متراخيًا بغير مبالاة حتى بأن يرفع بصره نحوهم، رد السلام الذي ألقاه إسماعيل أكثر ملفوفًا بلهجة التوقير..

ـ ما شُفتش الواد ظريف استخبى فين؟

أجابهم السلطان في البدء بصوت عال لرشفة الشاي الساخن، قبل أن يتبعها بسؤال:

ـ ماله ظريف؟!

حكى له إسماعيل أكثر ما حدث باختصار. كان يلهث مخنوق الصوت انفعالا، وفي نهاية حديثه ردد..

ـ يرضيك كده يا سلطان؟

رددها مرتين، في حين أتاه صوت من بين الجمع خلفه يصرخ بانفعال أكبر، وهو ما أغاظه..

ـ تارنا يا سلطان.. لازم ناخد تارنا..

أجابهم السلطان بصوت عال للرشفة الثانية من الشاي

fb/mashro3pdf

الساخن، زادها هذه المرة بأن رفع إليهم بصره، وهو يتحدث..

ـ إنتو مش بتقولوا إن الشيخ رجب ـ الله يرحمه ـ هو البادئ؟! يبقى ظريف لا لوم عليه.

أربك هذا الرد إسماعيل أكثر.. فهو يدرك جيدًا معنى أن يقف السلطان ضد رغبتهم. كما أربكهم جميعًا أن يقترن اسم رجب للمرة الأولى بدعاء «الله يرحمه»، فكان له وقع ثقيل بينهم، زادهم رغبة في اتباع طريق الثأر. صوت قنديل جاء من آخر الجمع، شارحًا للسلطان الفارق بين الفعلتين..

ـ الشيخ رجب ما قتلش سمعان.. هو ضربه بغشومية صحيح.. بس سمعان لسة عايش.. إنما ظريف غز الشيخ رجب في مقتل.. يعني كان قاصد يقتله..

تدخل عبد المرضي مؤيدًا..

ـ العين بالعين والسن بالسن.. حرام يبقى جزاء الشيخ رجب القتل وهو ما قتلش..

هز السلطان رأسه تفهمًا، بدا على وجهه صمت التدبر والتفكير لوقت، قبل أن يقول:

ـ ماشي.. ظريف معايا.

ثم أشار من وراء كتفه نحو باب الشونة..

ـ ظريف مستخبي جوة.

واجهت نظراتهم الباب الضخم المغلق بقفلين كبيرين يتدليان من رتاجيه. مفتاحاهما ـ كما يعلمون جميعًا ـ لا يفارقان جيب

fb/mashro3pdf

الأستاذ خليل طوال ساعات الوردية. الفكرة التي وحدت عقولهم دونما اتفاق أن السلطان يسخر منهم، وهو بالطبع شيء - إن صح - لا يقدر أي منهم أن يبدي اعتراضًا عليه أو ضيقا منه. والأهم، أن أحدهم لا يجرؤ على سؤاله عن كيفية حصوله على مفتاحي الشونة. ولكن السلطان تابع بوجه لا يحمل سوى الجدية..

- بس خلوا بالكم.. ظريف معاه سلاح آلي..

شعبان طريشة ردد من آخر الجمع..

- آلي؟!!

بعضهم نظر إليه إمعانًا في تأمل لحظة من اللحظات التي يقيمون عليها شكوكهم في مدى صحة ما يدعيه شعبان من ضعف السمع، فالمسافة بين القائل والسامع، وخفوت صوت السلطان، لا يتيحان لشعبان - إن كان بالفعل ضعيف السمع - أن يسمعه. أحس هو بمعنى النظرات الموجهة إليه، فصنع من هتافه سؤالا، وكأنما كان فقط يتحقق من صحة سمعه..

- هو قال سلاح آلي؟

إسماعيل أكثن لم يكن يتابع ما يحدث مع شعبان طريشة، وما كان يهتم، فقد كان يسأل السلطان لحظتها..

- والسلاح الآلي ده وصل إزاي لإيد ظريف؟

فكانت إجابة السلطان..

- أنا عطيته له علشان يدافع عن نفسه.

fb/mashro3pdf

تعجب إسماعيل أكثر، في حين نطق قنديل بالدهشة التي كانت تنبت في عقله..

- بس ده مجرم!

أجابه السلطان، عقب رشفة الشاي الأخيرة، وهو يضع جانبًا الكوب الذي لم يزل يتصاعد منه بخار السخونة..

- حتى القانون بيعطي المجرم حق الدفاع عن نفسه.

قالها واعتدل في جلسته، مد يده نحو الوسادة الرابضة بجواره، حل الخيط الذي يربط طرفها، ومد يده وسط القطن القديم الذي برز منها. ولما سحبها، ظهرت لعيونهم أطراف بنادق آلية وسيوف وأسلحة خرطوش. قال موضحًا..

- زي ما عطيته سلاح.. آدي سلاح ليكم.. وباب الشونة قصادكم. ادخلوا هاتوه، أو اقتلوه، أو حتى نيكوا أمه.. أنا بره الموضوع ده.. على الحياد.

أذهلتهم للحظة صعوبة الامتحان.. هل هم بالفعل على هذا القدر من الحماس للقصاص من ظريف؟ هل يملكون براعة تمثيلية كافية لأن يسايروا ذلك التصاعد في أحداث مسرحيتهم؟ ما فكر فيه إسماعيل أكثر وقتها أن رجب فعلها وأجاد أداء دوره، ليخرج من باطنه جانبًا شرسًا، ما ظن أحدهم يومًا أنه يملكه. ثم جاء ظريف وتفوق عليه، ليلعب ببراعة ذلك - الجبان المتخاذل - دور القاتل. فكيف يمكن لهما - أو لأي أحد - أن يتفوق عليه، وهو الخبير في التمثيل؟.. لذا وجد في نفسه جرأة

fb/mashro3pdf

وبأس المخَدَر، ليمد يده ملتقطًا بندقية آلية من بين ما برز من جوف الوسادة، وهو يعلن للجميع..

ـ أنا داخل أجيب ظريف ملفوف في دمه..

من بعده لم يدم جمود المشهد طويلاً، فقد سرت كالكهرباء في عقولهم بواعث شخصية ومحفزات ذاتية تدفعهم نحو كمال الأداء.

* * *

سعد عبد الرازق طالما اعتبر سمعان شقيقا له.. هو جاره وزميل دراسة منذ الطفولة، جمعتهما كثير من أنشطة الحياة، بدءًا من لعب المساكة في الحارة، وحتى المشاركة في جلسات الحشيش والسكر في بارات وسط البلد الشعبية القديمة قدم وجود الإنجليز في البلد، حيث باتوا يقدمون شرابًا لا يفرق عن السبرتو النقي إلا القليل! مرورًا بلعب البلي والكرة واستئجار الدراجات، وتبادل الصور العارية للاستمناء، وصيد العاهرات. وحتى التجربة الوحيدة لكل منهما في مضاجعة الأطفال تشاركاها سويًا؛ وهي على كل حال ذكرى لا يجبان استدعاءها كثيرًا، وأحيانا ما يساعدهما تغييب الخمر الرديء للعقل يومها على نسيان الكثير من تفاصيل ما حدث.. فكيف إذن لا يعتبره أخا؟ ربما علاقتهما حاليًا ليست بذات القوة، لظروف متعلقة بجريان الزمن وتعاظم المسؤليات، ولكنها علاقة تكفي ـ كما بين أي صديقين ـ للتسامح في هفوات الأعصاب أو الخناقات

fb/mashro3pdf

الصغيرة العابرة، والتي تسمى في أوقات التصالح: لحظة شيطان. لهذا، لم يتوقف سعد عند واقعة سب سمعان لدين أمه، فلطالما كانت ألفاظ كتلك وسباب من أقذر الأنواع تتداول بينهما في جدهما وهزلهما. لم يكن سعد ليقف عند أمر كهذا، حتى وإن أجمع الحاضرون على أنه لم يكن الطرف المخطئ، وأن سمعان ـ على حد قولهم ـ قد افترى عليه. سعد أخرسه الذهول لحظة أن تهجم الشيخ رجب على سمعان بدعوى أنه سب الدين.. لم يستطع سعد أن يتذكر واقعة قريبة سب فيها سمعان الدين سوى واقعتهما، لذا كان تساؤله المنطقي: أيعقل أن يكون كل ما حدث بسببه؟ ربما هو أخطأ لأنه لم يرد لسمعان اللعنات، ربما لو كان شتمه أو صفعه جزاء تطاوله على الدين لما كان حدث ما حدث، فالآن هو يحمل ما هو أكثر من شعور ذنب تجاه صديق كاد أن يقتل أمام عينيه، فهو يحمل الآن وزر إهانة الإسلام، فلن يتسامح معه أحد وقد أراهم الشيخ رجب مثلا للغيرة على الدين والثأر له.

المشكلة أن سعد ببساطة لم يكن مؤمنًا بهذه الخرافات؛ لا دين ولا أنبياء أو ملائكة أو إله غير مرئي يسكن فوق سبع طبقات من السماء، أو أي من هذه الأمور ـ التي أكلت عقول الناس ـ نجحت في إقناعه بحقيقتها، أو بكونها أكثر من مجرد خدعة حاكها البشر لأنفسهم، لنفي مسئوليتهم عن حياتهم وأفعالهم، ولصقها في رقبة كائنات خرافية. أفكار كهذه لم يكن سعد يجد حرجًا من إعلانها على الملأ، حين يملأ دخان الحشيش الثقيل المسارات الدقيقة السارحة على سطح مخه. رفقاء جلساته لا يأخذون

fb/mashro3pdf

كلماته على ما هو أكثر من محمل الهزل، يسخرون ويسبونه، قبل أن ينهوا حديثهم بكلمات الوعظ التقليدية، ويدعونه -على وقع كركرة الجوزة- لاتقاء الله فيما يقول. في الغالب، ما يصرح به في تلك الجلسات يتبخر بانتهاء انعقادها، أو بضياع مفعول المخدر من العقول -أيهما أسرع- ويعود لحياته الطبيعية، حابسًا أفكاره بعيدًا عن حدود اللسان. لم يكن يخفي ميوله نفاقا للمقربين وللمجتمع، وإنما - ببساطة - لإراحة رأسه من وجع الدماغ. هو يدرك كم هو مجتمع متخلف لا يقبل الاختلاف، فلماذا يضع نفسه في صدام لن يقوده إلى أي انتصار، طالما أن أفكاره في النهاية لا تعني أحدًا غيره؟ من الوارد إذًا أن تراه يحرص على صلاة الجمعة. هو في الغالب لا يفقه شيئا مما يقال فيها، وما يفهمه يستهزئ به في سره.. ملتزم - أمام الناس - بمظاهر الصوم في رمضان، بل ويشاركهم إطلاق صواعق الغضب والغيرة على الدين في ظهور المجاهرين بالفطر. حتى عندما فاجأته زوجته بقرار ارتداء النقاب لم يعترض، بل وربما وجدها فرصة كذلك لمغازلة رضا الناس. وبالفعل، كانت كلمات المديح في خلقه وحسن دينه، التي يطلقها بسخاء كل من يرى زوجته في غلافها الأسود تسعده، ليس نفاقا كما أكدنا من قبل - لا سامحَ الله - وإنما لتأكده من بعد أية شبهات عنه، تاركة له مساحة فسيحة لممارسة أفكاره. لم يكن لديه مانع حتى أن يؤم الناس في صلاة الجنازة على والده، بل وأن يخوض مشادة بسيطة مع عمه في المسجد عن أيهم أحق بهذا الشرف المقدس. هو يحفظ عن ظهر قلب طريقة أداء هذا الدور، فما الذي كبله عن أدائه لحظة

fb/mashro3pdf

أن سب سمعان الدين؟ أيكون ما أصابه لحظتها شللا قدريًا، من قدر خطط مسبقا لوصول الأمور لتلك النقطة؟ ربما كان يمكن أن يقتنع بنظرية غرائبية كتلك، إن كان يؤمن بالقدر أصلا. الغريب أن أفكاره المتحررة تلك كانت من الأمور المشتركة التي جمعته بسمعان، ولطالما تشاركا في قعدات الحشيش السخرية من أولئك الذين يؤمنون بأن الذي ادعى صعوده إلى السماء وهبوطه منها في ساعات ليس كاذبًا! أو هؤلاء الذين يعتقدون أن من حول الماء إلى خمر وأحيى الموتى ليس نصابًا!

سب الدين لم يكن يمثل لسعد عبد الرازق ما هو أكثر من مجرد عادة كلامية. ولكن المسألة عند الحديث عن الدين تتعلق بالصورة أكثر من تعلقها بالمضمون. ما هو مرسوم في أذهان الآخرين عن شخص اسمه سعد عبد الرازق هو ما يجب أن يحافظ هذا الشخص عليه ويتحرك في إطاره. لذا، فالمعلن على الملأ في موقف كهذا كان يجب أن يخالف أفكاره (وهو أمر لا يعتبر عيبًا أو خطيئة مهلكة بالمناسبة)، هو ليس أقل غيرة على الإسلام من الشيخ رجب.. هذا هو الدور الذي أداه طويلاً، والذي كان يجب أن يؤديه لحظة أن سب له سمعان الدين، والذي يجب أن يتمسك بأدائه في هذه اللحظة، لذا قرر في تلك اللحظات العصيبة أن يكتم بداخله حزنه على سمعان، وأن يمد يده ساحبًا سيفا، معلنًا أنه سيدخل الشونة كذلك.

* * *

fb/mashro3pdf

رمضان بلية كان دافعه لاتباعها أكثر بساطة، وهو الفضول. رمضان لا يرحب أبدًا بفكرة أن يحدث في المصنع أمر كهذا، ولا يكون شاهدًا عليه. كيف إذن سيحكي ما حدث لكل من يقابله، دون أن يقع على التفاصيل الكاملة؟

بلية كان يعتبرها مجرد هواية؛ يرفض أن يصدق ادعاءات البعض بأن ما يفعله يعد أمرًا غير أخلاقي؛ هو يؤكد دائما أنه لا يكذب، ولا يحب الكذب، ولا يحترم الكاذبين؛ هو فقط ينقل ما حدث كما هو، بلا زيادة أو نقصان (كان يقول إن رأسه عبارة عن ريكوردر رباني، قادر على تسجيل كل كلمة وكل حرف، ونقلها بأمانة تامة، وبنص الكلمات) فما الضير من هذا؟ وما غير الأخلاقي بالضبط في الموضوع؟ طالما أنه لا ينقل الأحداث والكلمات بدافع الوقيعة بين الناس ـ لا سامحَ الله ـ أو بدافع الوشاية أو النميمة. هي فقط هواية، أو عادة يصعب عليه الخلاص منها، فلماذا يقع عليه اللوم دائما؟ ما المطلوب منه أكثر من أنه يحذر الآخرين من نفسه بنفسه؟ كم مرة طلب ممن يعرفه ألا يحكي له أسرارًا، أو يتحدث أمامه بأمور لا يريد لها أن تنتشر، لأنه ـ على حد وصفه ـ لا يستطيع أن يمسك لسانه أو يحتفظ بسر لأكثر من ثانيتين. فطالما هو لا يخدع أحدًا، وطالما هو صريح مع نفسه ومع الآخرين، فلماذا يكرهونه إذا؟ وهو الأمر الذي لا يخفى عليه، فهو بالذكاء الكافي ليدرك أن زملاءه يبغضونه، ويتحاشونه وكأنه وباء. لا أحد يفتح له قلبه وأذنيه سوى الأستاذ خليل، وهو حين ينقل له أخبار المصنع، ويحدثه بما يفعله العمال وما يقولونه؛ لا يفعل هذا بغرض الوشاية

fb/mashro3pdf

أو مجاملة السلطة ـ والله شهيد على ذلك ـ أو طمعًا في ترقية أو مكافأة، كما يشيع عنه الظالمون، وإنما يفعل هذا لأن الله خلقه هكذا، ولا يستطيع هو ـ أو حتى يحق له ـ أن يغير ما خلقه الله. لكل هذا حمل سيفا من الوسادة معلنًا أنه سيدخل الشونة بدوره. لم يكن في نيته أن يستخدم سلاحه، أو يبذل أدنى جهد في السعي وراء ظريف؛ هو فقط يريد أن يرى ما سيحدث.

* * *

قنديل وشعبان طريشة صديقان مقربان لبعضهما، حتى قبل أن يجمعهما العمل في المصنع. فارق الأعوام العشر التي تفصل قنديل الواقف على أعتاب الثلاثينات وشعبان الواقف على أعتاب الأربعينات، لم يكن هو سبب الدهشة والتهامس من وراء ظهريهما، بحيرة جمعت كل الزملاء والمعارف؛ وإنما لفارق ـ كالمسافة الفارقة بين السماء والأرض ـ في الأخلاق وحلاوة الطبع واللسان وحب الناس يفصلهما. قنديل لم يكن له أصدقاء سوى شعبان، قنديل كان مكروهًا من زملائه، في حين كان شعبان محبوبًا مشهودًا له بالطيبة وحسن الخلق.. نقيضين تعذر على المتابعين لهما تفسير مقتضيات الانجذاب الحادث بينهما...

fb/mashro3pdf

قنديل...

قنديل المتعجرف، المتعالي على زملائه ينحشر دائمًا في أي مزاح ثقيل بين اثنين، متجاهلاً حقيقة أنه غير مدعو إليه، بل وحتى ليس على علاقة بطرفيه تتيح له حرية مشاركة مزاحهما؛ ولكنها طريقة ـ عُرفت عنه ـ لفرض وجوده، وهو الأمر الذي لا يخلو من مشاكل وعراك، ولكن قنديل لم تكن تنقصه الشراسة أو سلاطة اللسان. من يدفعه سوء الحظ إلى مشاركته جلسة حشيش، أو حتى جلسة بريئة على مقهى، لابد وأن يلاحظ ـ حتى وإن لم يكن عن سابق معرفة ـ عجرفته في التعامل، وسوداويته التي تفيض عنه على كل البشر، وكذب الحكايات التي لا يكف عن سردها بحرارة الصادق، ويكون فيها دائمًا البطل الشجاع القوي غير القابل للهزيمة. لم يكن كذبه فقط هو المكشوف للجميع، وإنما بواعث تصرفاته كذلك، وموطن ذلك التشوه الحادث في شخصيته، والذي دائمًا ما يصفوه بـ «سواد القلب»، أو كما وصفه مرة عبد المرضي في واحدة من تحليلاته المتعمقة..

ـ قنديل ده عنده عقدة النقص..

لم يسأله أحد عن المعنى المقصود من تلك الكلمة، فهم يعلمون أنه بالتأكيد وقع عليها من برامج السياسة التي يدمنها، وربما حتى لا يفهم معناها!

الكل يتكلم عن نشأة قنديل التي أثقلته بأزمات تجعله مدفوعًا دائمًا لاقتناص أي شعور بالتفوق على الآخرين، حتى

fb/mashro3pdf

وإن كان بالتعالي عليهم، أو بمحاولة إبهارهم بحكايات كاذبة. قنديل نشأ فقيرًا في منطقة الإسكان الشعبي، عمل منذ طفولته ليعول نفسه ويشارك في إعالة أمه وشقيقاته. ولكن هذا لم يكن سببًا مقنعًا لحالته، فهو في هذا لم يكن أكثر بؤسًا وشقاء من جيران السكن، أو من زملاء العمل، وكلهم تقريبًا نشأوا في ذات الظروف، ومروا بذات التجارب. الفارق حدث حينما تفتحت عيناه، وازداد وعيًا ودربة بالحياة، عندها اكتشف أن حياة كتلك ما كان يستحقها؛ اكتشف أن أباه ميسور الحال، وأن عمله كعامل في شركة للبترول مثار حسد الجميع، وأن راتبه قادر على فتح بيتين متوسطي الحال وإعالة أسرتين، كاللتين يعيلهما بالفعل؛ أسرة قنديل وشقيقاته وأمهم، وأسرته الجديدة من الزوجة الثانية. ولكن والده ـ وليس الظروف أو حظوظ الدنيا ـ هو من اختار إهمال قنديل وإخوته، لأنه ببساطة لم يكن يحب أمهم، ولم ينس ـ رغم سنوات العشرة، وكثرة الأبناء ـ أنه تزوجها مكرهًا بغصب أبيه، للحفاظ على إرث عائلي، كونها ابنة عمه. ولولا تلك العشرة، وأولئك الأبناء ـ كما يؤكد في كل مكان ومناسبة ـ لطلقها قبل حتى أن يتزوج بأخرى.

قنديل حاول كثيرًا في سنوات شبابه المبكرة أن يجد حلا لتلك المعضلة. دار على كل العقول المعروفة بحكمتها في العائلة وبين الجيران، يحكي لهم عن معاناته في الإنفاق على البيت والشقيقات، في حين ينعم البيت الثاني بعز أبيه كاملا. وكان دائمًا ما يواجه باهتزاز الرأس المتعاطف، وكلمات الحوقلة، والاستشهاد بالآيات والأحاديث، واللعنات على رأس أبيه.. ثم

fb/mashro3pdf

لا شيء..

ـ أبوك أصله دماغه ناشفة وما بيسمعش كلام حد..

ـ مش بس كده.. ده ممكن كمان لو حد منا كلمه يعند زيادة ويخربها عليكم أكتر..

أدرك أنه طريق لن يوصله لنهاية مرجوة، فالأقارب أغلبهم يدينون لوالده بنقود، والجيران ينعمون بأموال أبيه التي يسكبها عليهم سكبًا في قعدات المقاهي والحشيش، فكيف لهم أن يغضبوه، أو أن يتدخلوا في أموره الخاصة بغير ما يرضيه؟ لذا قرر البحث عن مسار آخر، ربما كان أكثر صدامية وخطورة؛ يجب أن تتحرك الأم، تأخذ موقفًا منه، ترسل حتى لأعمامها في الصعيد، هي ما كانت تفعل سوى أن تتزين وتقود الفتيات لتنظيف البيت وإعداد غداء محترمًا يوم أن يحن عليهم الأب بزيارة. قنديل ما كانت ظروف عمله تسمح له بإدراك زيارات الأب.. يعود في الغالب متأخرًا، يكون أبوه قد رحل، فلا يدرك سوى لحظة خروج أمه من الحمام الذي يشيعها بدفقات من البخار الساخن تعقبها عبر بابه، وعلى وجهها المحمر ابتسامة رضا تجعله يشمئز منها، فكان إدراكه لاستحالة المضي في هذا الطريق. أحيانًا يفكر في قتل والده، ربما سيجدون في توزيع الميراث العدل الذي حرمهم منه، وأحيانًا يفكر في سرقته، بل وكاد يسير في خطوات التنفيذ ،متعاونًا مع مجموعة من شباب المنطقة معروفين بالسرقات الصغيرة، وإن وجد عندهم الحماس لتجربة السطو على المنازل، لكنه تراجع قبل حتى أن يخبرهم

fb/mashro3pdf

بتفاصيل العملية والهدف منها، لما أحس منهم باحتمالات الغدر، مدركًا ضعفه وسطهم.

من هنا، اختار قنديل ألا يوجه حقده وأزمات النقص فقط تجاه أبيه، أو تجاه إخوته غير الأشقاء الذين تنعموا في خير أبيه؛ ولا حتى تجاه أمه التي بات لا يخفي كرهه لها واشمئزازه منها، وإنما وجههما تجاه الجنس البشري كله، وجعل حياته بالكامل سعيًا زائفًا، في معركة متوهمة مع الجميع نحو التفوق. لكل هذا لم يكن عسيرًا على قنديل أن يقرر المشاركة في حملة دخول الثانوية، طالما أنه عمل رجولي ممتدح، وفيه رائحة بطولية.

fb/mashro3pdf

شعبان طريشة...

شعبان طريشة ـ على العكس تمامًا من صديقه ـ كان محبوبًا لطيته، يشهد له كل من عامله بحسن الخلق وحلاوة اللسان. لم يضبط يومًا متلفظًا بلفظ بذيء، حتى في قمة ثوراته.. أبشع سباب يمكن أن يطلقه «ابن الكلب». يعتبر نغمة نشاذ في معزوفة المجتمع الصغير الساكن هذا المصنع، حتى كثيرًا ما وُجه له سؤال:

ـ انت بتتعامل مع الناس دي إزاي؟!

مشكلة شعبان طريشة الوحيدة مع الآخرين تكمن في إصرارهم المحموم على إثبات أنه ليس ضعيف السمع كما يدعي. رغم أن ضعف السمع لازمه منذ صغره، وكان سببًا في تلقيبه بـ «طريشة» ـ وليس تشبها بالشعبان القاتل الذي يعيش في الصحاري وله ذات الاسم ـ فلماذا بعد كل تلك الأعوام يجد إصرارًا من الزملاء على التشكيك في تلك الحقيقة؟! ما كان يقلقه منهم حقا ويؤرقه في ليال كثيرة هو اقترابهم من اكتشاف سره إلى هذا الحد. عصبية شعبان ـ المبالغ بها أحيانًا ـ التي يجيب بها كل من يلمح، أو يصرح ولو مزاحًا، بأن مسألة ضعف سمعه تلك مدعاة من باب الاستعباط، أو تصدير الطرشة للدنيا ـ على حد قولهم ـ لم تكن رد فعل لإهانة لحقت به، وإنما لشعور بأن العمر الذي أضاعه في تلك اللعبة قد يذهب سدى، إن انكشفت يقينًا حقيقة إدعائه.

شعبان لم تكن ترد على ذهنه تعبيرات مثل «اللعبة» أو

fb/mashro3pdf

«المرحية» قبل تلك الليلة. ضغط تلك الليلة الملهمة هو ما دفعه ـ كما فعل مع إسماعيل أكشن من قبل ـ لاكتشاف عمق تغلغل اللعب في تاريخه. عندما ماتت أمه وتركته وأربع أشقاء مقسمين بالتساوي بين الذكورة والأنوثة، كان قرار الأب الصعيدي العجوز واضحًا.. هو يريد الشقة ليتزوج مرة أخرى، ابتناه تزوجتا ولم يتبق له في البيت سوى الذكور الثلاثة، وهو بحاجة لمن يخدمه.. ببساطة أصدر فرمانا بمغادرة الأبناء للشقة، لا يهمه إلى أين، كل منهم يعمل وقادر على شق طريقه..

ـ انشالله تناموا في الجوامع.. يلعن أبوكو..

هكذا صرح بها في وجه أحد الأبناء الذي صارح باعتراضه. شعبان المراهق لم يجادل، ولم يشارك في السجالات الحامية بين الأب والشقيقين. تسلح بلا مبالاة لم يعرف أنه يمتلكها، وزيادة في الابتعاد كان يرد على كل كلمة توجه له بـ..

ـ إيه؟

وهو ما انتهى باستفزاز أحد شقيقيه فصرخ فيه دونما تحفظ من وجود الأب..

ـ انت هاتعمل أطرش بكس أمك..؟!

ولم يدر لحظتها الأخ أنه أطلق للتو نبوءة. شعبان، الذي خرج من بيت أبيه مطرودًا ليعمل خفيرًا عند زوج شقيقته على قطعة أرض يمتلكها في الأرياف مقابل أن يجد مكانا يؤويه، قرر من هذه اللحظة أن ينعزل عن الناس، ويعطي نفسه مساحة

fb/mashro3pdf

واسعة بعيدة عنهم. كم من سخافات وحماقات ومشاكل كفاه هذا الادعاء إياها على مر العمر.. كان ـ أكثر من غيره ـ متشبعًا بصدق مقولة: البعد عن الناس غنيمة. هو لم يرد أكثر من أن يترك لحاله، فكانت هذه اللعبة تعطيه الحق في ألا يرد على محدثه، وألا يجيب من يناديه، وتعفيه من مقتضيات اجتماعية حمقاء تجبر الناس على تكوين صداقات جديدة. والأجمل، أن مرور الوقت وطول التمسك بلعبته البسيطة، كفلا له جدارًا من الانعزال عن الناس، هو أجمل مما تمناه، فقد بات الجهد العبثي الذي يبذله الناس للتواصل معه دافعًا منطقيًا للابتعاد عنه شيئا فشيئا. في النهاية، لم يعد في حياته سوى زوجته ـ الوحيدة التي تعرف سر لعبته ـ وقنديل صديقه الوحيد.

منذ أن استلم عمله في تلك الوردية اللعينة ونظرات الشك والتلميحات المتهمة تحاصره. كيف يمكن أن ينزلق قناعه بهذه السرعة، وهو الذي يمتلك خبرة الأعوام في التستر به؟! فكر بعد أسبوع واحد في ترك العمل بهذه الوردية، ولكن مبررات التحاقه بالعمل بها كانت أقوى.

شعبان لم يبغ سوى الهرب من ليل منزله. بات جحيمًا لا يطاق حين تضمه الجدران الأربعة بزوجته ليلا. الليل تحديدًا هو ما يخشاه، تحديدًا ذلك العبق الشهواني الذي يملأ الأجواء، مندفعًا من سخونة جسد زوجته الجائع. هي ما عادت تطالبه بشيء، حتى مظهرها أهملته، ربما يأسًا. توقفت عن ممارسة المحاولات الليلية المحمومة حتمية الفشل، وبرغم هذا لم يتوقف هو عن الخوف من الليل، ولم يتوقف ثقل الشعور بالعجز عن

fb/mashro3pdf

مهاجمته في الليل. هو جرب كل شيء.. جرب كل عقار سمع الرجال يتباهون به وهو يدعي أنه لا يسمعهم. قنديل كان يمده بكل ما يطلبه، وبأكثر حتى مما يطلبه ـ ربما لهذا يحتفظ بصداقته؟ ـ بلا جدوى. زوجته عرضت عليه مرة ـ على استحياء ـ أن يزور طبيبًا، فكان جزاؤها صفعة وركلة وليلة طويلة من الإهانة. كيف تتوقع ـ بنت الكلب ـ أن يجالس طبيبًا ليخبره بأمر كهذا؟! فلتذهب الزوجة ـ وكل نساء الدنيا ـ إلى الجحيم، إن كان شبقها سيدفعه نحو الفضيحة. فكرة الطلاق راودته، وإنما لم تسكن رأسه لأكثر من زمن تدخين سيجارة حشيش، قبل أن يدعها تطير في الهواء ـ مع دخان النفس الأخير من السيجارة ـ غير آسف، فقد تكمن فضيحته الحقيقية في هذا الطلاق الذي سيعطيها الحق في الحديث في كل مكان عن خمس سنوات من الزواج بلا معاشرة سوى مرات معدودة ما كان يحكمها سوى الإحباط. ستحكي عن شهور عاشتها معه وهي بنت لم تزل، حتى فتح الله عليه، فكانت المرة الأولى، لينجح بالكاد في خدش بكارتها. كانت ظلال تلك الحكايات في خياله تصيبه بالجنون، فليبقها في بيته طالما أنه يعرف كيف يجبرها على الصمت، وليدعو الله أن يأتي موتها سريعًا، لتموت معها فضيحته المحتملة.

فقط تلك الحادثة البسيطة هي ما أفسد الكثير من سلام حياته وتعايشه الصامت مع مأساته؛ ليلة أن اقترب من بيته الساكن قلب حارة ضيقة، في آخر الليل ـ عائدًا من عمله الثاني ـ فلمح جسدًا يغادر البناية بخطوات خفيفة سريعة، جسد له نفس أبعاد جسد قنديل. كاد أن يناديه، ولكن تشككه أخرسه.

fb/mashro3pdf

عندما دخل بيته، قابله صوت الماء المتدفق من الدش من وراء باب الحمام المغلق.. فتح الباب، فأجفلت زوجته في عريها المبلل. جسدها لم يزل مرسومًا بالفتنة، ربما لندرة استعماله. هجم عليها لحظتها ـ نادرًا ما يبادر هو بالمحاولة ـ لم تتلقفه بالحماس الآمل كمثل كل مرة.. كانت متصلبة محايدة، وكأنها تعلن سابق علمها بالإحباط المنتظر في نهاية أية محاولة. هو نفسه لم يكن يعرف تحديدًا سبب اندفاعته.. ربما كان يحاول أن يخرس أصوات شكوكه. ولكن حين ارتد ـ كالعادة ـ خائبًا، أدرك أنه لم يفعل سوى أن زاد تلك الأصوات صخبًا. طوال أيام، فشل في إيجاد حل لنهش الظنون، حتى سمع بأمر وردية الليل. وجدها فرصة للابتعاد عن جحيم منزله.. سيعود في الصباح منهكًا، يتستر بضوء الشمس وينام، ثم ينهض بعدها إلى عمل الظهيرة، ومنه إلى عمله الليلي في المصنع، مبتعدًا عن الزوجة وعالمها الناري الذي لا يرغب في اكتشافه، مدعيًا ـ ربما ـ أن كل شيء على ما يرام، وأن بيته لم يزل تحت سيطرته، والمرأة لم تزل ـ وستظل ـ مخلصة له رغم عجزه. أو كما فكر مرة، راسمًا تشبيهًا أكثر مصداقية للادعاء الجديد: ليكن «طريشة» كذلك في بيته! ولكن لما لحق به قنديل في وردية الليل، هدأت شكوكه قليلا. فلو أن قنديل ـ الذي ائتمنه على سر عجزه دونًا عن خلق الله جميعًا ـ على علاقة بزوجته، كما يهيئ له إحساسه، لكان أولى به أن يستغل غياب شعبان عن بيته طوال الليل، لا أن يصاحبه في غيبته. برغم هذا، لم تختف الأصوات المؤرقة من رأسه تمامًا، حتى إنه، لحظة أن أعلن عن نيته لدخول الشونة، كان يعلم

fb/mashro3pdf

أن قراره هذا بسبب قنديل، ولكنه لم يعرف إن كان سيصحب قنديل شهامة منه، وحتى لا يتخلى عن صديقه الوحيد - كما كانت كلماته أمام الجمع توحي - أم لسبب آخر، لا يحب كثيرًا أن يصارح نفسه به في اللحظة الحالية.

* * *

الأباصيري وسعيد شاورما، فكان دافعهما لاتباع تلك الحملة هو رغبتهما في اتباع تلك الحملة! أو تحديدًا هو الخوف من وصفهما بالجبن إن هما لم يتبعا تلك الحملة. وهو على النقيض من موقفي عمرو النص وعبد المرضي، اللذين قررا - دونما اعتبار لاتهامات بالجبن تنتظرهما - ألا يدخلا الشونة. عمرو ألقى تعليقين ساخرين عن صغر سنه والمستقبل الذي ينتظره، فلماذا يعرضه للخطر؟! عبد المرضي لم يعلق، واكتفى بالجلوس صامتا أمام نار السلطان، الذي نهض قائلا:

- كل واحد مسؤول عن قراره.. إوعوا بس يا ولاد الوسخة تقلبوا اللعبة إللي بينكم جد.. حاكم الفراولة غدارة!!

تقريبًا لم يفهموا مقصده، وإن بلغتهم رائحة سخرية متربة مما بين الحروف، أو ربما هي لحظة هبط عليه الوحي فيها بنبوءة ما متغلغلة في تلك الكلمات. تابعوه وهو يفتح القفلين بمفتاحين من جيبه، أزاحهما وجر الباب الثقيل ففتحه، فكان ظلام الشونة يطالعهم. تقدم خطوتين بجوار الباب، رفع ذراع توصيل

fb/mashro3pdf

الكهرباء، فـرى في الشـونة ـ هائلـة الحجـم ـ ضـوء أصفـر ناعـس، لا يسـمن ولا يغني مـن ظـلام. ابتعـد عـن البـاب بعدهـا قائـلا:

ـ أنـا هاقفـل البـاب وراكـم علشـان ظريـف مـا يهربـش منـه.. ولمـا تمسـكوه خبطـوا وأنـا هافتـح لكـم.

خطـا السـبعة بحـذر إلى داخـل الشـونة، فعـاد السـلطان يجـر البـاب حتـى أغلقـه. علـق القفلـين في رتاجيهـما دون أن يغلقهـما، ثـم رجـع إلى وضـع الجلـوس الأبـدي، مؤتنسًـا هـذه المـرة بوجـود النـص وعبـد المـرضي. السـلطان كان ـ مثلهـم جميعًـا ـ يكـره ثرثـرة عبـد المـرضي التـي لا تنتهـي، ربـما لهـذا بـادره:

ـ صوتـك مـا يطلعـش يـا راجـل يـا عـرص لحـد مـا تقـوم تغـور في داهيـة مـن هنـا.

* * *

الأسـتاذ خليـل لم يصـدق مـا شـاهده.. ربـما النافـذة التـي يطـل منهـا تزيـف تلـك المشـاهد.. كيـف أدخـل السـلطان ترسـانة الأسـلحة تلـك إلى المصنـع، وهـو الـذي لم يتوقـف عـن مراقبتـه يومًـا؟! ومـن أيـن حصـل عـلى مفتاحـي الشـونة؟! لحظتهـا أرسـل يـده تستكشـف جيبـه، فوجـد المفتاحـين هنـاك كـما تركهـما. عقلـه يخاطبـه بنغمـة لحـوح بـأن مـا يحـدث الآن أمـر غـير طبيعـي لا يمكـن السـكوت عنـه. هـو لم يصـدق أبـدًا ـ وكيـف يمكـن لعاقـل أن يصـدق ـ مـا يثـار في المنطقـة عـن كرامـات مولانـا السـلطان، فهـل كان عـدم

fb/mashro3pdf

الإيمان خطيئته؟! جرب من جديد أن يتصل بصاحب الشركة، جرب مرتين متتاليتين بذات النتيجة؛ لا رد. فكر أن وجود اسم صاحب الشركة بكثافة في قائمة المكالمات الصادرة من هاتفه سيكون عونًا له إن هو عاتبه على الاتصال بالشرطة دون الرجوع إليه. لمرة أخرى جرب الاتصال به، في نيته أن تكون الأخيرة، وليكن اتصاله التالي بالشرطة، متحملاً العواقب.

الوقت لم يسعفه لتحويل نواياه إلى فعل. كان صفير الهاتف وشاشته يعلنان انتهاء الرنين بلا رد، لحظة أن بلغه طرق على الجدار الزجاجي. أجفل، فكان سمعان يحاول أن يستوي في وقفته خارج المكتب، مستندًا على الزجاج السميك. لما تلاقت عيناهما، أشار سمعان بطلب لرئيسه أن يفتح له باب المكتب. كان يشير بأصابعه إلى جانب وجهه بإشارة الهاتف، فتواجهه نظرات الأستاذ خليل مرسومة بعدم الفهم. حاول سمعان أن يصرخ، على صوته يندفع مخترقا الزجاج، كان يشير إلى باب المكتب الموصد من الداخل، ويصيح..

ـ افتح..

لم يكن يبغي سوى أن يصل إلى هاتفه المحتجز في درج مكتب الأستاذ خليل ليطلب الإسعاف، فلماذا يواجهه الأستاذ خليل بكل هذه البلادة والجمود؟! ربما مظهره كان مخيفًا ـ وللأمانة فالأستاذ خليل كان يخشاه في الظروف الطبيعية ـ بذراعه المتدلي بغير حركة، سوى أرجحة مخيفة تصاحب انتفاضات الجسد، منفصل عن عظمة الكتف التي بان بروزها حتى من تحت

fb/mashro3pdf

ملابسه، وساقه اليسرى المنحرفة للداخل بزاوية غير طبيعية، والعظم البارزة أطرافه المهشمة عبر الجلد، فلا يدري الأستاذ خليل كيف تمكن من صعود السلم المعدني بهذا الحال. كان يواصل إلحاحه ووجهه يتلون بغضب، وطرقاته على الجدار تزداد قوة، فيزداد معها خوف الأستاذ خليل، وتتحول حيرته وشلل التفكير إلى قرار نهائي بعدم فتح الباب. وكأنما تمكن التعب من جسد سمعان المهشم؛ ترك نفسه لجاذبية الأرض.

سمعان لم يكن يحب الأستاذ خليل ـ ولم تكن لديه أزمة في المجاهرة بذلك ـ إلى حد مناصبة العداء. سمعان لم يكن يحمل في أعماقه تلك المنطقة الرمادية التي تجعلنا نتعايش مع الآخرين، نتقبلهم ويتقبلوننا. في إطار علاقاته، لم يكن لدى سمعان سوى تصنيفين للبشر: الأحباب والأعداء. هو لا يشعر تجاه الناس بالكراهية أو عدم الارتياح مثلا.. هو لا يملك على مقياس العلاقات السلبية سوى درجة واحدة: العداء. وارد إذن أن تكتشف أن أسباب معاملته العدائية المكشوفة لشخص ما أنه يستثقل ظله! في حالة الأستاذ خليل، فما كان يراه فيه سمعان لا يزيد عن رؤية باقي العاملين، للرجل الذي وطأ كل القيم في سبيل الحصول على منصب لا يساوي ما دفعه ثمنا له؛ فأن تتحول لقواد وكلب مخلص للباشا، مقابل الحصول على منصب رئيس وردية، هي بالتأكيد صفقة خاسرة. الكل كان يرى هذا، ولكن يتعاملون مع أمر واقع أراد للأستاذ خليل أن يصبح رئيسهم؛ لكن سمعان لم يكن يملك القدرة على التسامح أو

fb/mashro3pdf

اللامبالاة، فكانت رؤيته تلك كافية لأن يكره الأستاذ خليل وكأنه الموت، وينصّبه عدوًا لدودًا، حتى بات الأستاذ خليل يتحاشاه، لدرجة التخطيط لاستبعاده من الوردية.

ربما تطرف مشاعر سمعان وعدوانيته هما مجرد رد فعل لأزمة الأقلية التي رافقت نشأته كما ظريف؛ لكن سمعان لم يتسلم لقهر الاختلاف الديني. هو أصلا لم يحمل احترامًا لفكرة الدين، وتعلم مع مضي العمر أن الاختلاف وهم، والتمييز وهم، فكل المتدينين متشاركين في الأكل من ذات الخديعة. طوال حياته لم يصادق مسيحي واحد، بل كان يشارك أصدقاءه المقربين في سخريتهم من المسيحيين. في عائلته كانوا يعتبرونه مارقًا، فكان يقول ـ ساخرًا ـ أنه تربى في بيت تجسدت فيه أسمى معاني الوحدة الوطنية. منذ طفولته وسمعان يعي حقيقة تتردد في بيته وفي شارعه وحتى على لسان زملائه في المدرسة الإبتدائية. الكل يعلم أن أم سمعان ملبوسة، وما يتلبسها ـ كما أكد القساوسة ـ جن مسلم. هو ما يدفعها لإطلاق الزغاريد في نهارات الجمعة، والجلوس أمام الجامع الكبير بعد صلاوات العشاء تتسول، داعية للمصلين بزيارة بيت الله الحرام! حتى يأتي زوجها أو أحد أشقائها، فيأخذها عنوة ـ بالصفعات والركلات أحيانا ـ ويعيدها إلى بيتها، وهي تصرخ وتشق ملابسها. قساوسة الكنائس المجاورة عجزوا أمامها.. وحتى القس ذائع الصيت في كنيسته الجبلية في بلدة بعيدة لم يسعفهم. أخبرهم أن يجربوا المشايخ، فالجني المسلم لا يخشى الصليب، ولا يحرقه الماء المبارك، فطالما أنه مسلم، فربما أطاع مسلمًا مثله. رفض أبو سمعان الفكرة،

fb/mashro3pdf

واستبدلها بحيل جديدة، كالربط بالحبال، والضرب بالخيزران. الجني المسلم بقي في جسد الأم حتى وفاتها التي أراحت الجميع، لتذهب تاركة في عقل الابن عواصف من أفكار تقتلع كل معتقد أو إيمان غيبي، ليتيقن سمعان من إلحاده، ويقرر أن يواجه العالم بعدائية استباقية، فهو يظن أن اختلافه سيضعه إلى الأبد في دور محتوم كفرية للاضطهاد. تصنيفه الظاهر كمسيحي يجعله مختلفا عن الغالبية، وكفره الباطني يشعره باختلافه حتى عن الأقلية، فلم يكن أمامه من خيار سوى المبادرة بالعدوان، فالبادئ هو من يربح غالبًا، وليذهب العالم والناس إلى الجحيم؛ إن حقا كان موجودًا.

أراح سمعان ظهره على السياج المعدني للممر المعلق، محافظًا على اتجاه نظرات الغضب والكراهية نحو وجه الأستاذ خليل، الذي ارتجف ودعا الله ألا يطول الزمن بهذا الموقف. سمعان رفع يده السليمة ومرر سبابتها على رقبته مهددًا رئيسه بالذبح، ثم أسبل عينيه وسقطت رأسه على صدره، وكأنما أفرغ آخر طاقته. الأستاذ خليل ـ المرتجف ـ اقترب من الجدار الزجاجي بخطوات حذرة ـ وكأنما سيقفز سمعان في أية لحظة مخترقا الزجاج نحو عنقه ـ مستكشفًا، فأدرك من الحركة الهادئة الرتيبة لصدر سمعان أنه لم يزل حيًا. عاد إلى هاتفه ـ وقد نسي سابق عزمه ـ يجرب الاتصال بصاحب الشركة مرة أخرى، فكانت كما سابقاتها؛ بلا جدوى.

***

fb/mashro3pdf

صاحب الشركة لحظتها كان في حال يكرهه، وإن لم يعلن هذا إيمانًا منه بضرورته؛ فبعض الأمور تجبرنا عليها مقتضيات الواجب، بغض النظر عن أية اعتبارات خاصة أو أهواء شخصية. الفتاتان لم تبديا اعتراضًا وقت أن طلب منهما الاستلقاء ليقوم بلعق فرجيهما، فمن خبراتهما عرفا رجالا يحبون ذلك الفعل. ولكن صاحب المصنع لم يكن يحبه، بل وكان يشمئز منه حتى. فقط عشقه للكمال في الجنس كان الدافع؛ يحمل دائمًا هم إرضاء رفيقته فوق أي هم أو اعتبار؛ حتى وإن كانت الرفيقة في الأصل مستأجرة لإرضائه، ولا رغبة لديها ـ أو حتى اهتمام ـ بالوصول لمناطق مرتفعة من النشوة. الأمر بالنسبة لها محض عمل، وأداؤها تحكمه الاحترافية لا الاستمتاع، وهو يعلم هذا بحكم خبرته، ولكنه فقط يتعامل مع الجنس بما هو أكثر من مقتضيات المتعة، وإنما بتقديس المتعبد، وكأنما ستحل على رأسه لعنات إلهية إن هو ارتكب خطيئة التقصير في حقوق شريك الممارسة. لذا، كان ـ كأي مؤمن حق ـ ركوعه في هذه اللحظة في محراب الأفخاذ المتباعدة، كصلاة يكرهها ولكن يرتجي ثوابها.

الأباصيري وبعض الأحداث...

قال مولانا السلطان نقلا عن الوحي: (إنما الرفعة في علو يد الرجل على يد أخيه.. من بسط لك يده بما ليس بك قدرة على درئه، فعليك اتباعه.. والخضوع لمشيئته.. والخنوع تحت إمرته.. فللقوة مقامها القدسي.. وانهزام الرجل أمام الرجل مشيئة

fb/mashro3pdf

إلهية.. فمن فاقك قوة امتلك زمامك.. وإن كان على الباطل.. ومن خارت قوته أمامك، صار لك تبعا، وأحلت لك روحه.. فإما أن تؤويه إليك.. أو ترسله لخالقه)

رواه حودة النص

الشونة مكان واسع، مخنوق بصناديق وأجولة بلاستيكية عملاقة مصفوفة بارتفاعات تكاد تبلغ السقف العالي. الشونة -على اتساعها- لا تتيح للنهار سوى شبكة من طرقات متقاطعة، تفصل بين تكدسات البضائع والمواد الخام، لا يبلغ عرض أكثر الطرقات اتساعًا المترين. الرؤية الشبحية تلقي ظلالاً عند كل زاوية تقاطع وكل ركن، فتخلق في الشونة ملايين المخابئ المحتملة لظريف الهارب.

أول خطوتين قطعوهما متلاصقين كجسد واحد.. بعدها توقفوا؛ ربما مراجعة لموقفهم مما يحدث، أو ربما لأنهم وجدوا في أنفسهم جبنًا يفوق ما تخيلوه. منذ متى كان ظريف مخيفا؟ ألأن معه سلاحًا آليًا؟ فكرة عبر عنها إسماعيل أكثر بنبرته القيادية..

- هو يعني ظريف لما يمسك آلي، هيقى رامبو؟! مالكم خايفين كده ليه؟! ما إحنا كمان معانا آلي.

البنادق الآلية معهم لم تزد عن ثلاثة، واحدة مع إسماعيل أكثر، وواحدة مع شعبان طريشة، والثالثة مع الأباصيري.

fb/mashro3pdf

سعيد شاروما معه فرد خرطوش لا يملك له سوى خرطوش واحد فقط، عليه أن يستخدمه بحكمة. إسماعيل أكشن اقترح عليهم، وإن بدا أنه في الحقيقة يأمرهم..

ـ احنا نتفرق.. وكل واحد يمشي من سكة.. علشان نعرف نفتش الشونة كلها.

أحدهم قال:

ـ بس يبقى كل اتنين مع بعض.

لاقى الاقتراح ترحيبًا. كونهم سبعة يعني حتمية أن يبقى فرد بلا شريك، أو مجموعة من ثلاثة ربما؛ الأباصيري أراحهم من الحيرة لحظتها..

ـ أنا عايز أبقى لوحدي.

قالها، وعدل بندقيته بين يديه، وغادرهم متوغلاً خطوات، قبل أن ينحرف يسارًا في أول تقاطع قابله. بعدها لم يجدوا مشاكل في توزيع الأدوار، فشعبان وقنديل معا بحكم الصداقة، سعد عبد الرازق سيصحب إسماعيل أكشن، وسعيد شاورما مع رمضان بلية. بعدها اختار كل فريق منهم مسارًا، وتفرقوا.

* * *

الأباصيري لم يكن يطيق صبرًا حتى ينفرد بنفسه، لهذا كان اختياره الانفصال عنهم. بمجرد أن ابتعد عن العيون، واجدًا ركنًا معتمًا يحتويه، مستشعرًا ستر الظلال، أخرج من جيبه

fb/mashro3pdf

زجاجة الخمر البلاستيكية الصغيرة وجرع ما بها لآخر قطرة. ما بها لم يكن سوى خليط صنعه بنفسه من السبرتو والمياه الغازية. رغبته في الابتعاد عن الأعين لم يكن وراءها خجل من أن يشرب أمامهم، فهم - وكل من يعرفه، وحتى الجيران البعيدين عنه - يعرفون أنه مدمن خمر، ولكن في هذا المستوى من اللعب، كان مؤمنًا أن شرب الخمر يعد غشًا! فالقواعد تقول بوضوح أن عليه الادعاء، وبالتالي يصبح تعاطيه لأي شيء يغيب عقله حقيقةً خروجًا عن قواعد اللعبة، أو كمثل تعاطي المنشطات في الرياضة! أضحكه هذا الخاطر، فعرف أن الكحول بدأ يؤتي أثره.

الأباصيري - في عامه الثاني والخمسين - يعرف أكثر من سواه أن الخمر سيقتله، بل ربما هي معجزة أن بقي حيًا حتى هذا السن. ولكن ما باليد حيلة..

- الكيف بيذل..

كما اعتاد أن يرد على أي ناصح هازًا رأسه، مدعيًا الأسف. الأمر بدأ معه منذ المراهقة، وتصاعد حتى وصل إلى مرحلة استحالة أن تراه إلا سكرانا، أو كما تقول زوجته:

- الأباصيري مش بيفوق غير وهو نايم!

تقدم العمر كثيرًا قليلا تلك الحالة، لا بسبب ابتعاده عن الشرب، وإنما لأن الخمر فقد الكثير من القدرة على التأثير على عقله، حتى إنه في يوم غير بعيد هرع إلى ورشة غير مرخصة تصنع الخمور في وسط البلد، كان يشتري دائما خمورها لرخص ثمنها.. كان متوترًا وهو يستحلف صاحب الورشة بكل مقدس

fb/mashro3pdf

لديه، حتى أشفق الرجل عليه؛ فقد اكتشف الأباصيري يومها أنه يشرب منذ ثلاثة أيام ـ تقريبا بلا انقطاع ـ ولم يسكر برغم هذا!

ـ أبوس رجليك يا بيه.. شوف لي أي حاجة تلطشني..

أعطاه الرجل زجاجة بلاستيكية صغيرة كتجربة، فتحها الأباصيري متلهفًا وجرعها مرة واحدة، أحس لحظتها بالدوار المنشود يولد بطيئا كمقدمات الأعاصير، فطلب من الرجل ست زجاجات أخرى. ليلتها تحقق له المراد وبات سكرانا؛ حطم بعض الأشياء في البيت، وضرب زوجته حتى أسقط لها ضرسًا، ثم ضاجعها بعنف في مؤخرتها، كمثل أية ليلة سكر ممتعة.

الأباصيري عامة لا يملك في حياته ما يمكن أن يروى. هو الابن الأكبر الذي أتى إلى الدنيا بعد عناء وتبرك بالأولياء، آخرهم كان سيدي الأباصيري السكندري، لذا كان اعتقاد الزوجين الأكبر أن كرامته تحديدًا دون باقي الأولياء وآل البيت هي ما حلت في رحم الزوجة، لذا اختارا هذا الاسم لابنهما. الأباصيري في الحقيقة سكير ابن سكير، كل محاولات أمه لتجنيبه ـ وأشقاءه ـ مصير الأب، باءت بالفشل. بمجرد أن خرج عن مرحلة الطفولة وغادر جناح أمه، اكتشف أن طريق أبيه ليس بهذا السوء. الأب لم يبال يومًا بشيء، البيت لم يكن له سوى مكان لقضاء الحاجة والنوم، لا يعرف شيئا عن الأبناء أو خارطة طريق الأسرة، الأموال كانت الأم تحصل عليها منه قسرًا، تفتش ملابسه أثناء نومه وتأخذ كل ما تجده، على أمل ألا

fb/mashro3pdf

يجد ما يكفيه لشراء (الهباب) ـ كما كانت تسميه ـ ولكنه في اليوم التالي ـ ومثل كل يوم ـ يستيقظ عصرًا، يرتدي ملابسه، لا يأبه بخلو جيبه، يغادر البيت، ثم يعود قبيل الفجر سكرانًا وجيبه ممتلئ بالنقود، مقابل سرقات صغيرة لا تكف عن إلقاء نفسها في طريقه، مؤكدة ما يزعمه عن نفسه بأنه مسعود منذ ميلاده. مرات قليلة كان يقوم من نومه تحديدًا لحظة تفتيش الأم لملابسه، يكون مخمورًا لم يزل، فيثور على الزوجة اللصة. ثوراته تنتهي دائما بالاشتباك البدني معها يتعاركان بندية وعنف، ودائما ما تنتصر الزوجة.. جسدها الضخم مقابل جسده الهزيل يمنحانها دائمًا ذلك الامتياز، حتى وإن خرجت من المعركة بإصابات، كسن مكسور، أو جرح في الذراع جراء عقرة من أنياب الزوج. الأباصيري كان في صف الأم دائمًا في تلك المرحلة، وهي كانت تحب ذلك وتعتبره طريق النجاة لأطفالها، فلن نبالغ إن قلنا إنها كانت تتعمد زرع الكراهية في نفوس أطفالها تجاه الأب، لذا هي لم تفهم، حين أتاها الموت وجلست تتأمل حياتها، أي خطأ ارتكبته جعل الأبناء يغادرون إلى طريق الأب في نهاية المطاف. الأباصيري كان يعتقد أن الأمر منوط بالوراثة. (هو بالطبع لم يكن يستخدم تلك الكلمة تحديدًا «وراثة» وإنما عدد من المقولات الدالة على ذات المعنى، مثل: العرق دساس)، لذلك هو لم يحاول المقاومة بشكل حقيقي.. استسلم للأصحاب، وللخمر، ولمكسب السرقة السريع، والآن ـ في سنه تلك ـ يحمد الله أنه ترك كار السرقة، ويعتبر أن شرب الخمر ضرر أخف من ضرر، أو كما يقول:

ـ على الأقل أنا بأذي نفسي مش بأذي حد.

fb/mashro3pdf

وهي نقطة قد يختلف معه فيها الكثيرون من محيط علاقاته، على رأسهم زوجته، وحتى أمه التي عانت طويلا قبل زواجه من مرضه بالخمر، وحتى زملاؤه في الوردية، رغم حرصه على عدم الشرب أثناء العمل، ولكنهم أحيانًا ما يشكون من رائحة فمه التي لا تطاق.

أبشع جرائمه تحت تأثير الخمر كانت يوم أن ركل أصغر أبنائه - وكان عمره عام وقتها - ركلة أطارت جسده الضئيل، الذي كان يجبو تحت قدم أبيه غير عابئ بثورته لحظتها، لتضربه في الحائط فتقتله. هو لا يذكر سببًا لتلك الفعلة، ولا لأي شيء كانت ثورته لحظتها؛ فقط يذكر كيف أخذ الجثة وألقاها من شباك المنور وأمر زوجته بالصراخ. القصة التي قدمها للشرطة أن الطفل الشقي تسلق فوق الكراكيب المكدسة تحت الشباك، فاختل توازنه، وسقط من ارتفاع ثلاثة طوابق. الغريب أن الزوجة، التي فقدت للتو ابنًا، لم تدعم قصته فحسب، وإنما تحملت بصبر مواجهة قضية الإهمال التي كادت تؤدي بها إلى السجن. خنوعها بهذا الشكل كان يدفعه لمداعبتها أحيانًا، مدعيًا معرفته السبب الحقيقي لرضاها بتلك الحياة معه ورفضها التخلي عنه رغم ما يفعله بها؛ ليس بسبب العيال كما تدعي، ولا خوفا من بطشه بها، وإنما - كما يقول ضاحكا بخلاعة - لأنها تحب مضاجعته لمؤخرتها، وإنما هي فقط لا تحب الاعتراف بهذا!

رغم هذا، يجب أن نذكر أن إحساسا الذنب والندم اللذين تمكن منه بعد تلك الحادثة جعلاه يقسم بالله ألا يقرب الخمر ثانيًا، وبالفعل ابتعد عن الخمر والتزم بالصلاة لفترة بلغت

fb/mashro3pdf

يومين، قبل أن يكتشف أنه لا يستطيع تحمل إحساس الذنب، فلجأ للشرب إطفاءً لتلك النار!.. في النهاية، لم يتوقف عن ضرب أبنائه، ولا عن مضاجعة دبر زوجته، ولم يتوقف - في لحظات صحوته النادرة - عن الاعتقاد بأنه لا يفعل أي من هذا.

الأباصيري طالما سخر من ظريف، ومن جبنه وارتعاده أمام أي آخر، حتى وإن لم يحمل له سوى سلامًا. كان يسميه «ظريف الأرنب»، وإن فشل في نشر اللقب ليلتصق بظريف كصيت واسع الانتشار، لذا - ربما - هو لم يأخذ أي حذر من احتمال مواجهة ظريف وهو وحده بعيدًا عن أي دعم من الزملاء. كان واثقا - بيقين الخيال المخمور - أن ظريف منكمش الآن في ركن ما، يصلي نفسه بإحصاء رجفات البدن وارتعاشات القلب، في انتظار أن يمسكوه ويذبحوه كأرنب (راقته الصورة، خاصة والتشبيه توافق مع سابق وصفه لظريف بالأرنب) ففي تقديره أن ما فعله ظريف لم يكن أكثر من انفعال لحظي، من ذلك النوع الذي يدفع صاحبه لحماقات يندم عليها بعد ثانيتين، وسرعان ما يعود لطبيعته الجبانة الخانعة.

ما لم يتحسب له الأباصيري، أن ظريف لم يزل على تمسكه باللعبة وإصراره على مفاجأتهم بما يقلب مسارات الأمور. وضعه الحالي لا يتيح له أية فرجة للتراجع.. لا يملك سوى التقدم محمولا على تيار اللعب؛ يعرف أن أمله الوحيد في الخلاص منهم. هي معركته الأخيرة والوحيدة، فإما أن يكون القاتل، أو يصير المقتول.

fb/mashro3pdf

عندما رآهم من مخبأه العالي ـ على قمة مصفوفة للصناديق ـ يدخلون الشونة، أدرك أن السلطان خدعه حين أوهمه أنه سيحميه؛ ولماذا يصدق في كلمته تلك؟! الآن يطرح ظريف على نفسه هذا السؤال: كيف وثق في السلطان؟ هل صدق حقا أنه نبي أتى لنصرة الضعفاء؟ ربما ظن أن السلطان سيعجب به عندما يعرف أنه قاتل، فللقتل في دين السلطان مكانة، وللقاتل مهابة ورفعة. هو لا يملك جوابًا شافيًا لأي من تلك الأسئلة، ولكنه في ذات الوقت لن يكون منصفا لذاته إن هو أقر بخطأ لجوئه للسلطان، فإلى أين كان يفترض به الذهاب إن لم يلجأ له؟ هل كانت أمامه قشة للنجاة سواه؟ لذا وجد نفسه يتمتم على غير إرادة:

ـ مدد يا مولانا.

السلاح الذي رصده في أيدي زملاء العمل ينفي عن نيتهم أي خير يمكن توقعه. الآن يدرك أن لا أمان له سوى خلف البندقية في يده، والتي لم يزل يداعبها متكشفًا بحذر، كعاشق يفقد عذريته، ولا ضمان لبقائه إلا في قدرته على الاستمرار في أداء دوره.

كان يتحرك بخفة ـ لم يكن ليملكها لولا الفراولة ـ فوق صفوف الصناديق والأجولة وبالات المخلفات البلاستيكية.. يقطع المسافات قفزًا بين مصفوفة وأخرى.. يتدلى هابطًا، أو يتسلق صاعدًا، مستغلاً أي فراغ ـ مهما صغر ـ في تلاحم الصناديق. حول نفسه لقرد كبير مفرود القامة، وهو يحاول

fb/mashro3pdf

لجنب مساراتهم. لم يملك عقله القدرة على إصدار أمر سريع ليده بفتح النار عليهم في تجمعهم، فيسقطهم بضربة واحدة. بعدها لام تردده حين رآهم يتفرقون في مسارات تشعبت تحت ناظريه، وضاعت منه الفرصة وهو لم يزل يحاول استدعاء الانفعال اللازم لبلوغ ذروة الأداء. لم يأخذ وقتا ليقرر، اندفع وراء هوى النفس نحو الصيد الأسهل، فقفز من مكانه متبعًا مسار الأباصيري الذي ذهب وحيدًا. في نفس ظريف ثقة في أن الخمر الذي توقف الأباصيري ليتجرعه سيجعله صيدًا سهلاً. الحقيقة، أن الأباصيري كان يعتمد كثيرًا ـ ذهنيًا وبدنيًا ـ على الخمر.. شجاعة الخمر أكبر من شجاعة البرشام؛ وهو ما كان يجهله ظريف حين تدلى فوق الصناديق هابطًا بحذر، في بقعة غادرها الأباصيري منذ ثوان. خلع حذاءه منعًا للأصوات الفاضحة، وسار في ذات المسار متبعًا خطى الأباصيري، متخفيًا في الظلال لصق تكوم الصناديق. أدركه في بقعة تحدها صفوف قصيرة من الأجولة، رآها فرصة أن يستغلها للقفز فوقها هربًا قبل أن يفضح صوت الطلقات مكانه. كانت المسافة بينهما تبلغ الآن المترين، على إيقاع الخطوات البطيئة الحذرة للثنائي. لم يكن ظريف ليغامر بمحاولة الاقتراب أكثر.. رفع البندقية إلى مجال عينيه، ثبتها في كتفه مقلدًا ما يراه في الأفلام عن ضرب النار؛ ولكن الأفلام لا تخبر عن عسر التنفيذ على أرض الواقع، فأبطالها دائمًا يملكون قوة ودراية لم يمنح الحظ ظريف مثلها، فكانت ضغطته على الزناد كأمر للبندقية بضرب كتفه بقوة موجعة، فتأوه ومسار الطلقات ينحرف، لتشتت حول جسد

fb/mashro3pdf

الأباصيري، فما فعلت سوى أن نبهته لحضور ظريف. دار الأباصيري بسرعة رد فعل لم يتوقعها ظريف، لتنطلق رصاصات بندقيته كذلك بلا تركيز في كل مكان، فأتاحت لظريف الوقت للهرب إلى أقرب ركن صادفه ـ عند تقاطع مسارين ـ مختبئا. أخرج نصف جد وأطلق النار باتجاه البقعة التي شغلها الأباصيري، هو كذلك انطلق في الاتجاه المعاكس، مختبئًا خلف تكدس الأجولة. رسم ظريف الصليب، وصلى لكي لا يكتشف الآخرون مكانه. كانت نهاية الدرب أمامه الغارقة في الظلام تحمل تهديدًا بأن يفاجئه قدوم الآخرين على وقع إطلاق النار دون أن يلحظهم. فكر في تسلق الصناديق مختبئا، حين هدرت في أذنيه رصاصات الأباصيري، وأصابت حواف الصناديق المتستر وراءها، فنثرت شظايا من الخشب المهشم، نال وجهه نصيبًا منها، فخدشته تحت العين اليمنى. فكر عندها أن التحلي بالشجاعة هو أفضل الحلول، عليه أن ينهي ما بدأه، وإلا فهو الموت في كل الأحوال. صلى من جديد وهو ينطلق من مخبئه ركضًا نحو مخبأ الأباصيري.. تعلق في بندقيته وفوهتها ممدودة بسيل الطلقات نحو الأباصيري الذي انكمش مكانه لوقع المفاجأة.. بلغه ظريف، دار حول الأجولة المكدسة ليواجهه، لاقاه الأباصيري بسيل طلقات مماثل، اخترقت إحداها كتفه، في حين أجدت صلوات ظريف، فأصابت رصاصاته بكثافة رأس الأباصيري، لتأخذ من دمائه مرفوقة بقطع من شظايا الجمجمة المثقوبة، وقطع صغيرة لزجة من مخه، وتكمل طريقها نحو الظلام البعيد. سقط الأباصيري مفتت الرأس، وسقط بجواره

fb/mashro3pdf

ظريف راكعًا، ممسكا كتفه المصاب. حاول أن يتحامل ويهرب قبل أن يفاجئه أحد. بصعوبة رفع رأسه.. من بعيد رأى من يركض نحوه، لمح تحت الضوء الخافت وميضًا، قبل حتى أن يسمع صوت الفرقعة، وقبل أن يظهر أمامه سعيد شاورما قابضًا على فرد الخرطوش الممدود باتجاهه، وفي إثره يركض رمضان بلية لصق صفوف الصناديق وكأنما يحتمي بها. العجيب، أنه ما من شظية من شظايا الخرطوش أصابته، رغم إنه شعر بها تمرق بجوار رأسه. في هذه الثانية، أدرك عقله ما حدث كمعجزة، وكأن القديسين الذين دعاهم، ويسوع الذي صلى له، نفثوا زفيرهم المقدس في وجه الشظايا فثروها بعيدًا عن جسده.

ظريف حاول أن يرفع بندقيته ليلاقي اندفاعة سعيد بالطلقات، ولكن ضربة السيف لرقبته من الخلف بلغت من العنف درجة كفت لفصل رأسه عن رقبته بمقدار أخدود عميق شق اللحم والأوردة وبلغ فقرات العنق، ليسحب منه الروح قبل حتى أن يدرك هذا. لم يتوقف سعد عبد الرازق ـ برغم الدماء التي طالت وجهه وملابسه ـ واصل ضرب سيفه في عمق الشق الدموي، مرة.. وثانية.. وثالثة.. فلما شعر بتفتت عظام الرقبة تحت حد سيفه، ازداد حماسًا، لم يهتم بشظايا عظمية صغيرة أصابت وجهه، أكمل فعله حتى انفصلت الرأس تمامًا وتدحرجت على أرض الشونة، فرفع سيفه في الهواء كقائد حرب منتصر، وصرخ:

ـ الله أكبر..

fb/mashro3pdf

بلية وشاورما..

لا يصدق أحد ـ حتى من يعرفه جيدًا ـ أن سعيد شاورما لم يبلغ بعد عامه الخمسين. أما من يراه للمرة الأولى، فقد تضطر أن تقسم له بكثير من الحرارة أنه لم يتجاوز الستين كما يظن؛ إنما هو ذلك الخليط من المرض ومصائب الزمان ما يجعله يبدو على تلك الهيئة وهو لم يزل في الثانية والأربعين.

كلهم لم يعرفوا حينها ـ لا الجيران ولا الأقارب ولا الزملاء ـ كيف تمكن سعيد، الشاب الصغير لم يزل، من الإفلات من فك الفقر، والإسكان الشعبي، وموروثاته الاجتماعية والثقافية ـ التي تحتم ارتفاعًا منخفضًا لسقف أحلام شبابها ـ بل ومن فك البلد كلها، وأن ينطلق ـ كواقعة غير مسبوقة في عالمهم الضيق ـ إلى خارج البلاد، بل وإلى أوروبا تحديدًا. وبرغم دهشتهم، لم يحاول أحد البحث عن الإجابة، فلم يكن ثمة صوت في الحقيقة قادر على العلو فوق صوت الحقد والحسد المكشوفين، إلى حد الانفعال بأية حجة في وجه أبيه ـ الرجل الغلبان ـ بالدعاء على ابنه بالفشل ووقف الحال. ربما كان مشهد عودته من غربته خائبًا هو الحلم المشترك الذي طالما جمع أهل المنطقة في مناماتهم دون اتفاق.

سعيد دبر لكل شيء في سرية تامة؛ لا يعرف أحد من وضع له الخارطة، ولكنه كان يعرف طريقه كأفضل ما يكون، وقطعه بإصرار وصمت، حتى كان اليوم الذي نطق فيه أحد الجيران

fb/mashro3pdf

بالسؤال في وجه الأخ الأكبر..

ـ هو سعيد أخوك مش باين ليه بقاله فترة؟

فكان الجواب الذي زلزل استقرار أهالي المنطقة..

ـ سعيد سافر أوروبا عقبال أولادك.

الأب لام ابنه الأكبر على هذا التصريح، قرأ المعوذتين مئات المرات..

ـ يا ريتك قلت لهم ليبيا، أو العراق.. كان يبقى أهون.

ولم يستقر به الحال إلا عندما تلقى أول مكالمة من ابنه ـ وكانت بعد ما زاد عن الثلاثة أشهر من سفره ـ ليخبره فيها إنه استقر في هولندا بالفعل كما تمنى. بكى الأب كثيرًا، ولكن استراح قلبه رغم كل شيء.

لن يعرف أحد لماذا اختار سعيد هولندا تحديدًا، ولن يعرف أحد كيف نجح في إقناع قنصلية بولندا ـ وهو بعد لم يتجاوز عامه الواحد والعشرين ـ أنه رجل أعمال يبحث عن تصريح زيارة قصير الأجل من أجل العمل. لن يعرف أحد أية أوراق زورها لتأكيد ادعائه، حسابات بنكية، وفواتير معاملات تجارية باسم شركته المزعومة، ولا كم الأموال التي أنفقها، والتي استعارها جزءًا جزءًا من أخواله الخمسة بحجج مختلفة، ودون تلميح حتى بالسبب الحقيقي، مستغلاً تدليلهم المعتاد له، كونه من ريحة شقيقتهم الصغرى رحمها الله. ولن يعرف أحد أبدًا كيف ـ وبأية مغامرات ـ نجح في التسلل عبر الحدود البولندية

fb/mashro3pdf

إلى ألمانيا، ومنها إلى هولندا ـ حيث الحدود مفتوحة بين الدولتين، بعكس بولندا التي لم تكن ضمن الاتحاد الأوربي وقتها ـ بمفرده ودون معونة من أحد. لن يعرف أحد أن ما فعله سعيد كان من قبيل المعجزة. لن يعرف أحد، لأن سعيد لم يهتم أن يحكي لأحد ـ ولا حتى بعد عودته الخائبة ـ وتركهم يلوكون على ألسنة الحقد سيرة الحظ والدنيا التي هي مثل الخيارة!

عشر سنوات قضاها سعيد في هولندا. منذ يومه الأول حدد هدفه، المطاعم التي يملكها العرب في هولندا كثيرة، وأهل البلد يقبلون على المأكولات الشرقية التي تقدمها، عرف من صعلكته، ومن خلال صعاليك العرب الذين تعرف عليهم، أن المهاجر غير الشرعي عملة رائجة عند أصحاب تلك المحلات، فأجره قليل ولا حقوق له ليطالب بها، ويمكن أن تملكه بمجرد أن تمنحه مكانًا آمنًا يأويه. دار على تلك المحلات، لم يستغرقه وقتا طويلاً حتى أمن لنفسه وظيفة في أحدها، صاحبه هولندي شاب ورث المحل عن أبيه المغربي، وورث منه حرارة عواطف العرب. في هذا المطعم قضى أعوامه العشر كاملة، مرتقيًا من رفقة الجردل والمكنسة، وحتى نال تدريبًا خاصًا وأصبح شيف الشاورما، مرورًا بغسل الأطباق، وأعمال التقشير والتقطيع، وحتى توصيل الطلبات للمنازل. بقي مخلصًا للمكان وصاحبه، ورفض كثيرًا عروض عمل في محلات أخرى، وقد ظهر تمكنه من طهي الشاورما، فكان صاحب العمل يعطيه الكثير ولا يبخل عليه؛ فكان كل مليم يكسبه ويزيد عن احتياجات معيشته يرسله إلى مصر في حوالة بنكية باسم شقيقه. بعد سنوات من

fb/mashro3pdf

المحاولات الفاشلة، استقر به الحال أخيرًا في منزل خليلة من أهل البلد، طالت فترة ارتباطهما حتى حققت له المراد، ونظير خدماته في الفراش قدمت طلبًا للحكومة لتقنين إقامته كونه يعيش معها كحبيبين. وقتها، وهو ينتظر الحصول على أوراق الإقامة، تلقى اتصالا من والده ـ وكان سعيد قد هاتفه بمجرد أن سكن تلك الشقة، وأعطاه رقم الهاتف ـ ليبكي ويطلب منه الرجوع حالا، فالموت يتربص به ولا أمل له في موت هادئ إن لم ير ابنه قبل الموت.

قلبت المكالمة ـ ومكالمات عديدة تلتها تحمل إلحاح أبيه ودموعه ـ حياة سعيد وترتيباته، فكان يبكي كذلك في الليالي، وانقلبت أحواله في الفراش فبات كثيرًا ما يصد رفيقته، أو ينتهي سعيه بالفشل في إمتاعها، حتى هددته بأن تلغي طلب الإقامة إن استمر حاله على هذا. العاصفة في رأسه لم تهدأ، خشي إن هو سافر قبل انتهاء إجراءات الحصول على الإقامة فلن يستطيع العودة مرة أخرى. وإن هو انتظر فربما لن ينتظره الموت. في فجر ذات يوم، فكر أن ربما عشر سنوات تكفي، وأن ما ادخره من مال يكفي لحياة ملوك في بلده، فحزم حقائبه وقطع تذكرة العودة، متبعًا نداء الأب.

أول ما لاحظه بعد عودته أن والده بصحة جيدة، وثاني ملاحظاته أن والده يعيش وحيدًا. جواب دهشته كما ورد على لسان الأب أن ادعاء المرض، والوقوف على شفا الموت، لم تكن سوى حجة أبدعها الذهن البليد للأب لإجبار ابنه على العودة، بعد أن استنزف ـ وحتى آخر قطرة ـ حيله لإجبار ـ أو حتى

fb/mashro3pdf

إقناع ـ ابنه الأكبر على التوقف عما يفعله. ببساطة عاد سعيد من غربته ليكتشف أن شقيقه استولى على النقود التي كان يرسلها حتى آخر قرش. الأب قليل الحيلة هيأ له عقله ألا يخبر ابنه الضائع في بلاد غير البلاد بما يحدث، فيصيبه الغضب بخطب وهو بين أناس لا يعرفهم ولا يعرفونه، وربما حتى لا يهمهم شأنه في شيء. خوفه على الصغير، وعجزه أمام الكبير هما ما دفعاه للتحايل لإعادة سعيد للبلد، لينظر بنفسه ماذا هو فاعل مع شقيقه. كان الأمل يعابث الأب بخيال الأخ الأكبر وقد أعادته فرحة لقاء الشقيق الأصغر بعد عشر سنوات فراق إلى صوابه، فأعاد إليه ما أخذه بغير حق. وربما الأخ الأصغر إذا ما رأى ما استقر إليه حال أخيه، وإذا ما داعب ابنه الوليد رق قلبه وتنازل لأخيه عن طيب خاطر عما اغتصبه. ولكن ما لم يحتسب له، أن يحتمي الكبير في شلة من الصيع لمواجهة شقيقه الذي ذهب إلى بيته والغضب يعميه. وهو يبلل سجادة الصلاة بدموعه داعيًا الله أن يمر الموقف بسلام، وينتهي لقاؤهما على خير، لم يتخيل أن يدخل عليه سعيد مضروبًا متورم الوجه، وفوق شفته شارب من دماء متخثرة، يصرخ في وجهه لاعنا حماقته..

ـ طب كنت قل لي في التليفون.. ساعتها كان ممكن أستعوض ربنا في الفلوس وأعمل غيرهم.. ما انا كنت أقدر أعمل غيرهم طول ما انا هناك.. لكن دلوقتي خلاص.. كل حاجة ضاعت.

في العامين الأخيرين، آمن سعيد بشكل نهائي أنه قد لا يعود إلى بلده ثانيًا، وبالفعل هيأ نفسه أن يترك أمواله في مصر حلالا لأبيه وشقيقه، ولكن قرارًا كهذا يستمد سهولته من بقائه هناك،

fb/mashro3pdf

حيث يسهل عليه تعويض هذه الأموال. ولكنه الآن ـ بسبب أخ حاقد طماع، وأب أحمق ـ خسر كل شيء؛ أمواله، والإقامة التي كان على وشك الحصول عليها، وحتى فرصته في العودة مرة أخرى. لحظتها بدت له خسارة حياته ـ أو حريته ـ ليست بالخسارة العظيمة، لذا حمل سكينا من المطبخ، وهرع إلى منزل شقيقه قرب الفجر.

الطعنات الثلاث بيد سعيد المرتعشة لم تكف سوى لإحداث جروح سطحية في بطن الأخ. في عجبه ـ مستعدًا لمواجهة تهمة الشروع في القتل ـ جاءه أبوه برساله من الأخ يدعوه لعقد صفقة تقتضي بتنازله عن أمواله، في شكل إيصال أمانة يكتبه للشقيق كضمان أنه لن يعاود ـ إلى الأبد ـ المطالبة بتلك الأموال، مقابل أن يخرجه الشقيق من أزمته، وأن يشهد بأنه ليس المعتدي؛ بل وسيدبر له ـ كما وعد، في حالة قبول سعيد للصفقة ـ شهودًا يثبتون تواجده في مكان آخر لحظتها، إذا ما ارتابت النيابة في شهادته. أيام الحبس جعلت سعيد أكثر هدوءً، وجعلته يرى بيقين العين، وهو يتأمل في أركان الزنزانة الرطبة الخانقة ووجوه المحبوسين، ويعود بخياله عودات اجبارية لشقته الجميلة في هولندا، والوجوه المحمرة الباسمة، أن التضحية بحريته ليست خيارًا صائبًا، لذا قبل الصفقة، وزاد على بنودها أن تنقطع العلاقة بينه وبين أخيه إلى الأبد، وهو الشرط الذي لم يكن بالعسير على الأخ الأكبر تقبله. هكذا خرج سعيد من الأزمة بعشر أعوام أضيفت قسرًا على أعوام حياته التي تجاوزت الثلاثين بالكاد، محملة بأمراض ارتفاع الضغط والسكري، وبعض الشيب المبكر

fb/mashro3pdf

في شعره، الذي لم يصمد طويلا ليبدأ في رحلة تساقط سريع، وهذا ـ أي اعتلال الصحة ـ ما كان سببًا في عدم زواجه حتى الآن.

البعض ممن اقتربوا منه لفترة ـ ولو من باب الفضول ـ نصحوه بالذهاب إلى السلطان، فهو قادر على إعادة حقه، وهو لا يرد مظلومًا أو محتاجًا عن بابه. ولكن سعيد، الذي لم تسكن رأسه يوما تلك المعتقدات عن السلطان، وما رآه غير صورة لهمجيّ العصور الوسطى (هكذا قالها مرة في حوار عارض مع والده، والذي غالبا لم يفهم ما يقصده الابن وإن هز رأسه بالموافقة) رفض أن يقحم نفسه في دوامة كتلك، لا يعرف إلى ما ستؤدي به وبأسرته. خبرته مع الشاورما في النهاية أمنت له التنقل بين أكثر من مطعم، وحملته بين الجيران بلقب «شاورما». حتى الآن لا يعرف أحد لماذا ترك تلك المهنة والتحق بالعمل في المصنع. السبب الأقرب للتخيل هو زهده في الشاورما بما تلقيه من ظلال حياته القديمة المفتقدة، تلك الحياة التي ذاق حلاوتها لعشر أعوام، لتبقى إلى الأبد كشوكة في حلقه تعوقه عن ابتلاع حياته في ـ ما يفترض أنها ـ بلده. كره البلد وناسها، وعاش في هامش ضيق يتجنبهم كأنهم طاعون، فواجهوه بكراهية لم يزل وقودها الأساسي سابق حقدهم عليه. حتى في المصنع، كرهه زملاؤه وكرهوا تجنبه لهم، وأحبوا أن يفسروه بالتعالي والغرور. وحده الأستاذ خليل حاول التقرب منه، فكان سعيد هو الوحيد من بين كل عمال الوردية الذي التحق بها بناء على طلب الأستاذ خليل نفسه، والذي بذل جهدًا لإغرائه بالقوة والحماسة

fb/mashro3pdf

التي تمنحها الفراولة، والتي هو في حاجة إليها كحاجته للهواء.. والأهم، كما أكد الأستاذ خليل ضاحكًا:

ـ الفراولة هتخليك تستحمل العيشة وسط الاشكال الوسخة دي.

وفي الحقيقة، إن الأستاذ خليل كان يستمتع ـ في كل مناسبة وأمام أي مستمع ـ وهو يحكي عن سعيد شاورما، وعن حياته ونجاحه في أوروبا، ويمصمص الشفاه معلنا تعاطفه وهو يحكي عن الخيانة التي لاقاها على يدي أخيه، وعن معاناته في تلك البلد القذرة (أو البلد «بنت الوسخة» وهو اللفظ الذي يستخدمه الأستاذ خليل عادة). ولكن الأهم من تلك الحكاية، لحظة أن يؤكد لمستمعه ـ أو لمستمعيه ـ أن صاحب هذه الحكاية الملحمية، إنما هو عامل يعمل تحت إمرته!

سعيد شاورما لم تكن بغائبة عن عقله نظرة زملائه له. هو في الحقيقة كان يستعذبها، ويدعو الله أن يديمها نعمة، طالما أنها تحقق مراده فتبعدهم عنه. لذا، حين توقفوا قرب مدخل الشونة لتقسيم أنفسهم، تمنى أن يتركوه يذهب وحيدًا، ولكن الأباصيري سبقه وغادرهم مبتعدًا. لم يصعب عليه لحظتها أن يتفهم مبررات اختياره كشريك لرمضان بلية، فهو يعلم أن كلاهما منبوذ؛ هو بسبب تعاليه، وبلية بسبب عشقه للنميمة والوقيعة بين الجميع، لذا ارتضى تلك القسمة. ما تمناه لحظتها أن يمتلك واحدة من تلك البنادق كالتي يحملها أكشن والأباصيري وشعبان طريشة، ليس فقط لما تمنحه من أمان، خاصة لشخص مثله لم يشتبك

fb/mashro3pdf

في عـراك بـدني طـوال حياتـه إلا وخـرج منـه بتورمـات وجـروح، وإنـما بعـين خيالـه كان يـرى بندقيـة كتلـك في يـده، يفتـح نيرانهـا عليهـم جميعـا، فيـقطهم خرقـا مبللـة بدمائهـا. كانـت رؤيـة ممتعـة رسـمت عـلى وجهـه تلـك الابتـسامة التـي واجههـا الباقـون بنظـرات اسـتنكار، وعلـق أحدهـم همـسًا عـن الخنزيـر الـذي يضحـك في ظـرف كهـذا.

اختـار بنفسـه فـرد الخرطـوش، فهـو سـلاح نـاري في نهايـة الأمـر، ويضمـن لـه التأمـين مـن اشـتباك الأجـساد لحظـة المواجهـة، حتـى وإن لم يكـن بـه سـوى خرطـوش واحـد. ولكـن لحظـة المواجهـة حـين أتـت، لم تحمـل لـه شـيئا ممـا انتظـره...

***

كراهيـة النـاس لم تكـن بالـشيء المـستغرب عـلى بـال رمضـان بلية، فهـو يتعايـش معهـا منـذ طفولتـه. متـى اكتـشف حقـا أنـه يمتلـك ذلـك الـذي يـسميه موهبـة، ويـسميها النـاس «شـغل نـسوان»؟ كوصفـين يحمـلان وجهتـي نظـر متباينتـين لانفـلات لـسانه وهرولتـه دائـما نحـو الوشـاية. ربـما في سـن صغـير جـدًا، وقـت أن كان يـشي بزملائـه عنـد المدرسـين بـإصرار لم يكـسره التمـرغ عـلى تـراب الفنـاء، ولا قـسوة ضربـات الثـأر مـن أيـدي الموشـى بهـم. فقـط هـو لم يفطـن للأمـر، ولم يتعامـل معـه كظاهـرة تـسكنه، إلا يـوم أن هـرع إلى أبيـه في الورشـة، ليخـبره أمـام مجالـسيه بالقرصـة التـي رأى أصابـع أبـو

fb/mashro3pdf

أحمد العلاف تمتد بها لمؤخرة أمه في الخفاء، دون أن ينسى دعم حكايته بتمثيل الضحكة الخليعة التي تشكلت صامتة على وجه أمه. هذه الواقعة هي التي دفعته ـ في هذا العمر الصغير ـ إلى تأمل حالته، فسعيه لإرضاء تلك الرغبة الحارقة في نقل الأخبار دونما تقدير للعواقب أكسبه هذه المرة ما هو أكثر من قميص ممزق أو وجه متورم أو شفاه مدماة.. أكسبه أمًا قتيلة، وأبًا في السجن، وفضيحة بدا وكأنها ستعلق في رقبته إلى يوم الدين.

خالته كرهته بسبب ما حدث، فرفضت أن يقيم معها، وهي من يفترض أنها من بقي له في الدنيا. أخذت شقيقته الصغرى إلى بيتها لتربى وسط أبنائها، في حين أقسمت بالله ثلاث مرات ألا يطأ رمضان باب بيتها طالما أنها تملؤه بأنفاسها لم تزل، فأخذه زوجها وأودعه دارًا للأيتام.

في هذه الفترة العصيبة، أدرك رمضان الطفل أن ما به أشبه بمرض، وكأي مريض لا يصح أن يطاله حرج جزاء ما يرتكبه باسم المرض، لهذا بدأ يرد على الآخرين كراهيتهم، ومع كل صفعة طالت خده انتقامًا، ومع كل ركلة غاصت في مؤخرته غضبًا من زملاء الملجأ الذين راحوا ضحية لمرضه، كان يوجه كرهه لهم نحو المزيد من الوشايات، فكانت حربًا مشتعلة طوال سنوات إقامته في الملجأ، وهي الفترة التي ندم عليها رمضان فيما بعد، وأقسم ألا يستغل موهبته تلك (وقتها كان قد بدأ يسميها موهبة) في الإيذاء، قبل أن يدخل تعديلا بسيطًا على خطته، ليصبح المقصود تجنبه هو الإيذاء المتعمد، ففي النهاية هو لن يستغل موهبته كسلاح، ولكن ليس معنى هذا أنه سيكف

fb/mashro3pdf

عنها ولو بنية صافية، وهو ما يترك احتمالات كبيرة لاستمرار سقوط الضحايا المهم، أنه لم يعد يلومهم أو يسعى للثأر منهم، وبات من وقتها أكثر تصالحًا مع كراهية الآخرين، وبات يتلقى ضربات ضحاياه بتسامح المسيح.

في مرحلة متقدمة، ومع عودة رمضان الشاب للحياة، كان عليه أن يقر بضرورة ممارسة قدر من التحكم في لسانه، خاصة عندما لاحظ أنه بات هدفا لصداقة المخبرين ومرشدي الشرطة، لأسباب لم تخف عن ذكائه بالطبع. كان يجب أن يدرك هنا أن تلقي صفعة جزاء وشايته يختلف عن تلقي طعنة سكين في بطنه. ليس كل شخص إذن يصلح للوشاية به، وإذا دخل إلى ذلك العالم الذي يحاولون جره إليه، كعين للشرطة في المنطقة، فإنه لن يخرج منه سالمًا، وربما لا يخرج منه أصلا. الأمر إذن يحتم عليه ممارسة قدر ضئيل من التحكم والتوقع لتوابع أفعاله، ليبصر مبكرًا مقدار الأذى الذي قد يطاله جراء فعلته، ليتحاشى ما يمكن تصنيفه كأذى جسيم. هذه التوازنات هي التي جعلته يتعايش بقدر من الأمان مع كراهية الناس له. مرة واحدة أفلت الوضع من سيطرته، وكاد ينقلب لنهاية مأساوية، وإن كانت غير بعيدة عن المتوقع، لولا تدخل السلطان شخصيًا..

كان بلية قد تجاوز الثلاثين ببضع سنوات، عندما وجد أخيرًا من يرضى به زوجًا لابنته. اختار بيتا من حي بعيد عن المنطقة، حيث لا يعرفه أحد، ولا يعرف أحدًا، ودخله خاطبًا إحدى بناته. في منطقته، لم يصدق أحد أن بلية وجد من يرضى به. حتى ليلة أن نزل من بيته متأنقًا في بدلة رمادية لامعة، وركب سيارة

fb/mashro3pdf

حديثة مزينة، تحت غطاء من الزغاريد التي تطلقها شقيقته بكثافة جنونية، بقت بعض الشكوك عالقة في أذهان الناس. التأكد من صحة خبر الخطبة لم يسكن في يقين الجميع إلا بعد أن انقلبت الخطبة إلى كارثة. يحكي الشهود أن بلية كان في زيارة معتادة لبيت خطيبته، بعد أكثر من عام من الخطبة؛ ربع الساعة فقط كانت الفارق بين رؤية سكان الحارة له يصعد إلى بيت العروس مبتسمًا، وبين خروجه السريع من البناية راكضًا للنجاة بحياته، وشقيق البنت يطارده بسكين المطبخ، والأب يطارده بالسباب من الشرفة، ويصرخ في المارين للإمساك به! من يرى رمضان بلية لحظتها يوقن أن هذا الضئيل لم يحصل على لقبه من فراغ؛ فقد أجمع كل المطاردين له، وكل شهود الواقعة على الإشادة بسرعته وخفة حركته ومرونة جسده في المراوغة. أكمل بلية طريق هروبه متجاوزًا بيته ـ بدافع من إدراك عقله لخطورة المأزق الواقع به ـ إلى بيت السلطان.

السلطان كان ساعتها يطلق لم يزل كلمة الافتتاح للقعدة المزاجية المعتادة، حوله حلقة من الأنصار والمريدين، ما بين مؤمن برسالته وطامع في رضاه وصاحب مصلحة. في حضرته، جرت دموع بلية؛ لا يدري إن كان البكاء استجابة من الروح لمهابة السلطان، أم تفريغ لشحنة الخوف التي قادته للركض كل هذه المسافة..

ـ اقعد يا بلية.. وسعوا مكان لأخوكم بلية يا رجالة.

ولما جلس بلية، أصدر السلطان أوامر جديدة..

ـ الواجب بتاع بلية فين؟

fb/mashro3pdf

فوُضع أمام الضيف كوبٌ من النبيذ، وحيا صبي القعدة نحوه بالجوزة مددًا بوصتها نحو فمه. جرع بلية الكوب، وسحب نفسين متتابعين من الجوزة، فتغلغلت فيه السكينة، وبدأ يتحدث..

ـ أنا واقع في عرضك يا مولانا.. أهل خطبتي غدروا بيا.. أخوها بيلم عيال المنطقة بتاعتهم وهيتهجموا عليا الليلة في بيتي.. أخوها حالف بالطلاق إنه يعلق راسي عنده في البلكونة!

في البدء، صمت السلطان مواصلا عبوس الإنصات، بعدها ضحك باستهانة فضحك الجميع، بعدها تكلم..

ـ انت فاكر إن حد يقدر يطولك وانت في منطقتي؟

هبط برد الراحة على قلب بلية، حتى والسلطان يسبه في خطابه التالي..

ـ أي واحد عايش في المنطقة دي يبقى في حمايتي.. حتى لو كان خول ابن وسخة زيك.

ثم سحب السلطان من الجوزة نفسًا كان هو الأعظم، فأطربت قرقرة الماء في البرطمان الحاضرين، فمنهم من صرخ بنشوة صوفية:

ـ الله.

ثم ابتسم السلطان وقال:

ـ بس انت واخدناع الحامي، وما قُلتش انت عملت إيه علشان يعملوا معاك النمرة دي.

fb/mashro3pdf

هنا أسرع المراهق الرابض عند أقدامهم - كخادم للجوزة - يقول:

- تلاقيه يا مولانا ناك البت وراح سيح لها عند أبوها.

عندما انفجر السلطان ضاحكًا، انفجر معه باقي الجمع متضمنا بلية ذاته، غافلين جميعًا عن اللحظة التاريخية التي شهدوها لتوهم، فقد كانت تلك هي أول مزحة يطلقها عمرو النص في حضرة السلطان، وقريبًا سيصبح هذا المراهق الذي يرمقونه باستهانة أقرب إلى السلطان منهم جميعًا ومثار حسدهم، وموضعًا دائما لطعنات الوشاية والغدر والوقيعة، والتي لم يستجب لها السلطان يومًا، فكانت ثقته العمياء في النص تؤجج المزيد والمزيد من الحقد نحو ذلك القصير، ولكن في صمت.

قرب الفجر انتهت القعدة، وفي الصباح انتهى الأمر. أهل خطيبته حاولوا مهاجمة بيته قبل الظهر، ظنا منهم أنها ساعة يغط فيها السلطان في نومه. ولكن كيف ينام وهو الباسط حمايته على مئات الآلاف من البشر؟ هذا ما أدركوه متأخرًا. أدركوه وأجسادهم مصلوبة على أعمدة الإنارة بطول الشارع الرئيسي المؤدي إلى حيهم البعيد. ولسنوات بعدها، عاش أهالي تلك المنطقة، وتحديدًا كبراؤها، في خوف من سعي السلطان لمزيد من الانتقام، فقد بلغتهم منه رسالة بعد تلك المعركة، تقول إن عيالاً كهؤلاء يجرؤون على مهاجمة منطقة يحكمها السلطان، فهذا لأن النسوان هن من ربينهم، لأن منطقتهم ليس بها رجال. فكان الخوف دافعًا لانتقال عدد من سكان تلك المنطقة إلى

fb/mashro3pdf

مناطق بعيدة، وعلى رأسهم أصهار بلية السابقون.

* * *

بلية طوال المسيرة كان متأخرًا عن سعيد شاورما بخطوات. شاورما يستشعر رعشة قدم بلية على الأرض، يعرف أنه يفتقر للشجاعة، وأنه ما شاركهم حملتهم إلا رغبة لإرواء فضوله عما سيقع، لذا أحب أن يتقدمه شاهرًا سلاحه، فاردًا قامته، متباهيًا بشجاعة ـ لم يمتلكها إلا منذ لحظة ـ في مواجهة المجهول. لحظة أن سمعا صوت تبادل النيران، صعب عليهما في البدء تحديد مبعثه، فالسقف العالي للشونة يصنع متسعا لألاعيب الأصداء، ولكنهما برغم هذا انطلقا مجتهدين خلف مسار محتمل. بلية نسي خوفه وقد هزمه الفضول، فكادت خطواته تسبق خطوات سعيد، لحظة أن بدا لهما المشهد من بعيد، ورصاصات ظريف تمزق جسد الأباصيري، لم يتمالك سعيد أعصابه، ضغط الزناد ـ أو ربما انضغط عفوًا تحت ارتعاشة أصابعه ـ باتجاه جسد ظريف الراكع تألمًا، فانفجر خرطوشه وطارت شظاياه. ما لم يكن من المحتمل حدوثه إلا كنسبة واحد في المليون ـ أو كحادثة استثنائية يرويها الرجال كطرفة، مشفوعة بأيمان تؤكد صدقها ـ أن شظايا الخرطوش عبرت بجوار جسد ظريف من كل الاتجاهات دون أن تمسه، لتكمل طريقها في المسار الممتد خلفه، في ذات اللحظة التي ظهر فيه سعد عبد الرازق وإسماعيل أكثر قادمين برعتهما لإدراك ما يحدث. وكأنما إسماعيل على عجل للحاق بموعده القدري؛ اختارته شظايا الخرطوش دون الجميع لتخترق

fb/mashro3pdf

لحمه في أكثر من مكان، لتفجر دماءه من ثقوب دقيقة عدة. لم ينتبه أحد لحظتها لسقوطه، فقد كان جنون ما فعله سعد يطغى على أي احتمال لإدراك العجوز المصاب. فقط لحظة أن تلاشت في فضاء الشونة أصداء صيحة سعد «الله أكبر»، وتوقف رأس ظريف عن التدحرج، وثبتت نظراته الميتة على وجوههم جميعا، أمكنهم إدراك صراخ إسماعيل أكثر، الواقف متحاملاً، مستندًا على صف للصناديق..

- قتلتني يا سعيد.. قتلتني يا غبي يا ابن الغبي.

بدا لهم كلامه للحظة على قدر من المبالغة، قبل أن ينتبهوا لشلالات دماء تنهمر من ثقوب تزين جسده. ارتبك سعيد وقد فهم ما حدث، فصاح..

- ساعني يا عم إسماعيل.

لحظة أن أدرك العجوز إحتمالية الموت للمرة الأولى في حياته، قرر ألا يذهب دون أن يقدم أداءً أخيرًا؛ مقتضيات الدور وملامح الشخصية - وفقا لتوجيهات المخرج المتعجرف دومًا - تجبره على عدم التسامح. لذا تحامل رافعًا بندقيته نحو سعيد شاورما، أطلق رصاصاته لتخترق الجسد النحيف بحثا في اللحم والأحشاء عن مواضع لم يأكلها المرض بعد كمستقر لها. لحظتها، لم يجد إسماعيل أكثر من يصرخ فيه «ستووب»، لذا واصل حتى آخر طلقة في خزانة بندقيته.. لم يعبأ بصراخ بلية الذي انبطح على الأرض متجنبًا الرصاصات، وجد سعيد يتمزق بجواره ويغمره بدفقات من دم ولحم.

fb/mashro3pdf

سعيد لحظتها لم ينطق بالطبع، ولم يعد من موته ـ وحتى لو أراد العودة، فسيعجز عن معاودة تجميع جسده المفتت ـ ليخبرنا بما شعر به. ولكن يمكن أن ندرك ببعض الخيال أنه شعر لحظتها بالسعادة، أو بالراحة إذا شئنا الدقة، فها هو جسده يذهب هباء كما ذهب عمره من قبل.. الآن يتحرر أخيرًا من أشباح خيانة الأخ، والفرص الضائعة، وشقاء العمر الذي تمتع غيره بثمره، والأهم، أنه يتخلص من انتهاك الجسد، الذي طالما تحمل طعن أصابع عيال المنطقة وصيعها للموضع المحتمل لفتحة مؤخرته من خلف ملابسه في مزاحهم الثقيل، بدعوى أنه معتاد على هذا بحكم حياته في بلاد الخواجات، حيث يحب الرجال مضاجعة بعضهم. بالتأكيد من هو في موضعه كان سيفرح، وربما بدا له هدير الرصاصات كهدير زغاريد عرسه.

سقط ما بقي من جسد سعيد، وسقط إسماعيل مشيعًا بسباب بلية، الذي حاول التنفيث عن صدمته بالشخر وسب الدين. سعد انحنى فوق جسد إسماعيل، فوجده لم يزل يواجهه بعينين حيتين.. طالبه بأن يتحامل على نفسه ويتسند عليه للخروج من هنا. كان يحاول أن يرفع جسد إسماعيل أكثر المتألم عن الأرض، فلما اكتشف صعوبة المهمة، صرخ في بلية:

ـ ما تقوم يا خول تساعدني.

نهض بلية مغالبًا ارتجافات الجسد. نجحا سويًا في إقامة جسد إسماعيل معلقا بين كتفيهما، سارا به وقدماه تلامسان الأرض بالكاد، وصوت تأوهاته ينافس صوت لهاث انفعال

fb/mashro3pdf

بلية. لحظتها فكر إسماعيل أن دوره يجب أن ينتهي الآن بالموت.. هي على كل حال النهاية الأفضل دراميًا، فدونها إما السجن أو حبل المشنقة، إذا لم يشفع له تغيب العقل لحظة ارتكابه الجريمة بفعل الفراولة، لذا تكلم بأداء تمثيلي راق:

ـ سيبوني هنا يا ولاد.. سيبوني أواجه مصيري.

سعد عبد الرازق كان له رأي آخر، قطع به امتداد الحالة التراجيدية في أداء إسماعيل؛ ففي النهاية لن يحزن أحد على سعيد شاورما أو حتى يفتقده، فما الداعي لحكي الحقيقة؟

ـ إحنا هنقول إن ظريف هو اللي قتل سعيد.. وهو اللي قتل الأباصيري كمان.

ولكن استمتاع إسماعيل باللعبة هو ما دفعه إلى تكدير عقل سعد، مستعيدًا خطه الدرامي المأساوي..

ـ طب وظريف مين إللي قطع رقبته؟

أسقط في يد سعد، فقد أنساه حماسه لتبرئة إسماعيل بأنه هو كذلك متهم. لم يدم طويلا عبث محاولات إيجاد الحل، فقد فاجأهم ـ وكانوا قد بلغوا بالكاد باب الشونة ـ صوت إطلاق رصاص من مكان ما بين صفوف الصناديق.

* * *

الأستاذ خليل لم يجرؤ أن يظهر نفسه في النافذة، وكأنما نظرات السلطان ستقتله. كان مختبئا وراء نصفها المغلق يراقبهم

fb/mashro3pdf

من بين خصاصها. السلطان في جلسته الأبدية يشاركه النص وعبد المرضي؛ تعبيرات الوجوه، والإيماءات لم تكن تشي بأكثر من جلسة ودية بين أصدقاء، هناك ضحكات ووجوه مرحة، وصوت يعلو أحيانا بسباب مازح يوجهه السلطان لأبي عمرو النص وأمه. عبد المرضي كان صامتا على غير العادة مكفهر الوجه، ولكن ما من شيء في هيئة ثلاثتهم يعطي الأستاذ خليل دليلاً عن المؤامرة التي بات واثقا من وجودها، ومتيقنا من ضلوع السلطان بها؛ لا يدري كيف، ولكن حدسه يخبره بوجود تدبير ما وراء ما يحدث، برغم أن بداية الحدث كانت عفوية تمامًا، أو هكذا بدت. فكر حتى في إمكانية أن يكون السلطان هو المسؤول عن اختفاء تموين الليلة، ينقصه فقط الدليل. عاد يطلب صاحب الشركة، ومن جديد لا رد. حاول قدر الإمكان تأجيل خطوة الاتصال بالشرطة لحين الاستعانة بصاحب الشركة وعلاقاته، خشية البهدلة التي يصدرها له مجرد تفكيره في التعامل مع الشرطة، وهو الذي لا يحمل في ذكرياته معها سوى رجفات الخوف عندما يوقف الكمين الميكروباص الذي يركبه، ويصدف أن يكون في علبة سجائره قطعة حشيش أو سيجارة ملفوفة. عند منتهى الحيرة هداه تفكيره للاتصال بالشرطة من هاتف المصنع لا من هاتفه الشخصي. وإن سألوه عن شخصيته فسيجيب أنه رئيس الوردية. هكذا يجب أن يتم الأمر؛ عليه التعامل معهم بصفته وليس بشخصه. ولكن ما أحبط مخططه وأعاد علاقته مع الحيرة لمبتدئها، أن وجد الهاتف كجثة باردة بلا حرارة. لعن الدين والدنيا ـ واليوم الأغبر الذي قبل فيه أن يكون مسئولا ـ

fb/mashro3pdf

وهـو يجـرب الاتصـال بصاحـب الشركـة.

* * *

صاحـب الشركـة وقتهـا كان قـد دخـل لتـوه مرحلـة الحسـم. لحظـة اكتـمال الالتقـاء قـد تمثـل لشـخص في موضعـه ـ بـين فتاتـين مدربتـين ـ حـيرة وارتبـاكا.. قـد يواجههـما باستـسهال التعامـل مـع واحـدة فقـط، وليـترك للأخـرى مهامًـا متناثـرة بينـه وبـين تلـك النائمـة تحتـه، قـد يكـون لهـا أثـرًا عـلى درجـة الإمتـاع بينهـما، وفي الغالـب لا يكـون. صاحـب المصنـع طالمـا انتقـد مواقـف كتلـك، لحـد الاشـمئزاز ربـما، ففـي دينـه يعـد هـذا إخـلالاً بواجبـات الرجـل، لا يخلـو مـن التشـبه بالخيانـة للأمانـة ـ أو الأمانتـين ـ الموضوعـة ـ أو الموضوعتـين ـ بـين يديـه. لـذا فـما يفعلـه في لحظـة كتلـك يعـد ابداعًـا حركيًـا جديـرًا بالدراسـة، لكيفيـة امتطـاء الجسـدين في ذات اللحظـة، أو في لحظـات متقاربـة عـلى وجـه التحديـد، دون الإخـلال بحقـوق إحداهمـا أو دون تميـز بينهـما، تجسـيدًا لعـدل إلهـي ـ مـا للبـشر مـن طاقـة للوصـول إليـه ـ كان بإمكانـه استغلال مرونـة جسـده، مـع ترتيـب الجسـدين الطيعـين عـلى الفـراش بتشـكيل ابتكـره بذاتـه، لتوزيـع الحركـة المكوكيـة لنصـف الجسـد السـفلي بينهـما. صراخ الفتاتـين النشـوان، وتناثـر الألفـاظ الجنسـية المكشـوفة مـن فاهيهـما لم يكـن ليزيـده حماسـة كـما تأمـلان، فحماسـته متقـدة بالفعـل بدافـع الإخـلاص والتفـاني. لـذا، عندمـا فاجـأه ـ كـما بـات يحـدث مؤخـرًا ـ تدفقـا سريعًـا، لم تفلـح التأوهـات المشروخـة، مدعيـة المتعـة، في التقليـل مـن خيبـة أملـه، أو مـن كراهيتـه لذاتـه ولعجـزه الطـارئ.

fb/mashro3pdf

لم تفلح محاولاتهما للتغزل في فحولته إلا في تأكده من نفاقهما، وهي صفة كان يكرهها، لذا سبهما وأمرهما بعنف بالمغادرة. لملما ملابسهما وهما يكتمان شكوكا عن قواه العقلية لحين انفرادهما بنفسيهما. أشعل هو سيجارة، نفث دخانها لحظة أن اكتشف الهاتف الملقى بإهمال على الفراش. أضاء شاشته، فوجد اسم خليل يتكرر لثمانية عشر مرة في سجل المكالمات الواردة. شتمه بصوت عال، وبأقذر ألفاظ يستطيع نطقها، غير مبال باتهامات الجنون التي تتأكد في عقلي الفتاتين اللتين ترتديان ملابسهما في حجرة ملاصقة. ألقى بعدها الهاتف بعيدًا، وتمدد بجسده العاري على الفراش، ونام.

عبد المرضي...

طال الصمت بعبد المرضي لأكثر مما تحتمل خلايا عقله. اكتفى طويلاً بالإنصات لضحكات السلطان، والحكايات الطريفة التي يمطره بها النُص، عندما بلغ مجلسهم صوت مكتوم من داخل الشونة يشبه انهمار الطلقات، صرخ:

ـ استر يا رب.

لم يجد إجابة من مجالسيه، وكأنما لم يسمعاه ولم يسمعا الصوت، أو ربما ـ وهذا هو ما يخشاه ـ يتسلحان ضده بتجاهل يعلمان أنه قاتل لشخص مثله. برغم ضيقه، كان عليه أن يحترم هذا التجاهل، لحظة أن أمره السلطان بالصمت في بداية الجلسة، لحظة أن وصفه بـ«الراجل العرص»، لم يكن في هذا سوى إيحاء بأسرار

fb/mashro3pdf

مخجلة لا يعلمها عنه إلا السلطان. كان عليه أن يطيع الأمر وإلا أفشي سره وباتت سيرته لعبة لتسلية الألسنة والآذان الشبقة للفضائح. مرغمًا، ما كان أمامه سوى التعامل بجدية مع هذا التهديد المفترض، الذي شم رائحته نفاذة في كلمات السلطان.

السر المدفون إلى الآن في أعماق السلطان عن تلك الليلة التي أتاه فيها عبد المرضي أمام تلك النار تحديدًا، ليشاركه ذات الجلسة، حول نفس أكواب الشاي، طالبًا السماح بالتحدث معه في أمر هام. أجلسه السلطان محتفيًا، ناطقا بكلمة بدت لعبد المرضي ـ المرتجف رهبة ـ كلمة من سحر..

ـ أؤمرني.

عبد المرضي تزوج صغيرًا من ابنة عمه، ليس فقط كعادة متبعة حيث جذوره الصعيدية، وإنما كشراكة بين شقيقين ـ أبيه وعمه ـ للحصول على الشقة التي تملكها شقيقتهما في الإسكان الشعبي. هذا ما أدركه عبد المرضي المراهق، عندما استدعاه والده ليخبره أنهما سيذهبان معًا إلى بلدهما في الصعيد ليعقد قرانه على ابنة عمه، ثم سيأخذها ويسكنان مع عمته. الأب تحدث عن الحل الوحيد لخدمة العمة فيما بقى لها من عمر، وقد مات زوجها بلا أبناء وراءه، وأعياها المرض والوحدة. ولكن عبد المرضي كان يعلم أن الشقة هي الهدف، وليس الحنان المفاجئ نحو الشقيقة الكبرى. فبموجب الصفقة، يكون الأب قد تخلص من أكبر أبنائه، بعد أن تزوج وسكن بعيدًا وارتاح من همه، والعم ضمن لبنته الكبرى مستقبلا في المدينة الكبيرة.

fb/mashro3pdf

لصغر سنهما، تعلق الزوجان المراهقان ببعضهما، تحابا وعاشا حياة سعيدة، زادها سعادة أن أنجبا خمسة أبناء، وكمثل حلم جميل أتوا كلهم ذكور. خمسة ذكور كان بإمكان عبد المرضي أن يسير بسببهم مختالا في الحي، وفي القرية الصعيدية الهاربة من الزمن حين يأتيها زائرًا. ولكن الذكور الخمسة ـ ربما ـ كانوا فوق احتمال الجسد الواهن المعتل للزوجة، فماتت وأكبر الأولاد لم يزل على عتبة مراهقته. لم يسعه ـ وهو المكدود في عملين لإطعام العيال ـ إلا أن يتخطى سريعًا حزنه على رفيقة حياته، ويبحث عن زوجة. الأقارب في الصعيد رشحوا له قريبة من بعيد، شابة وجميلة طلقت منذ أشهر من زيجة استمرت لعامين، بعد أن تأكدت، وتأكد زوجها، وتأكدت العائلتان أن عدم الإنجاب هو لعيب فيها، فكانت بالنسبة لعبد المرضي ـ المتخم بالأبناء بأكثر مما يحتمل ـ كهدية من السماء، فهو، الزاهد في الولد، لم يكن ليجد حلاً لمعضلته سوى بالزواج من عاقر، فلا يكون هو من حرمها من نعمة الأبناء. هكذا استقرت به الحياة؛ وحين بدأ العيال يكبرون وينسلون منه كل إلى حاله، جاءته البشارة بوليد سادس نائم لم يزل في رحم كان الجميع يظنونه أجدب. ألجمه الذهول عن أي شعور، فلم يفرح أو يحزن، وإنما اكتفى بحمد لله على نعمه ومعجزاته. فرحة الزوجة ـ التي ستذوق طعم الأمومة بعد استقرار اليأس بها ـ أجبرته على المشاركة بفرحة لا تقل عنها. توجس في البدء حين وضعتها أنثى. ولكن سعد الإناث بدأ مع الأيام يصيبه في عمله بسعة في الرزق. الأيام فقط هي ما أثبت له أن توجسه الأول كان في محله.

fb/mashro3pdf

هـو لا يعـرف لمـاذا؛ ربـما لأن الأم دللتهـا، ربـما لأنـه كبر في السـن ولم يتابـع تربيتهـا بـذات الخشـونة والحـسم، كـما كان مـع أشـقائها. ربـما لأن الأبنـاء الذكـور كل في واديـه، ولم يشـاركوه هـم البنـت، ولم يحـدث حتـى أن أظهـروا نحوهـا اهتمامًـا أو حبًـا في أي يـوم، وحتـى وهـي كائـن رقيـق متـورد الضحكـة يحبـو تحـت أقدامهـم. أسـباب كثـيرة يمكـن تخيلهـا تفـسر كيـف باتـت لـه ابنـة سـاقطة! الأم يجـب أن تكـون متهـمًا رئيـسيًا بطبيعـة الحـال؛ تلـك الأم التـي جلسـت أمامه بوقاحـة ووجـه مكشـوف، تخـبره بفعلـة البنـت التـي حتـى لم تنـهِ بعـد الدبلـوم التجـاري، بـل وتطالبـه بالتعامـل معهـا ومـساعدتها في أزمتهـا. تقـسم لـه أنهـا لم تعـرف بالأمـر إلا الآن عندمـا أخبرتهـا البنـت المنهـارة طلبًـا للعـون..

ـ الـواد عشـم البنـت وضحـك عليهـا، والبنـت صغـيرة وعبيطـة. بـس هـو وغلاوتـك مـا أخـدش منهـا حاجـة، بتـك لـة زي مـا هـي. هـو بـس حـاول معاهـا، غواهـا، وهـي سـابت لـه نفـسها، بـس مـا سـابتلوش كل حاجـة.. والله العظيـم زي مـا بقولـك.. هـي سـابت حاجـات وحافظـت عـلى حاجـات، مـا هـي البـت ـ والله ـ مـش وحشـة، بـس الشـيطان غواهـا.

كان عليـه وهـو ينصـت لهـذا الحديـث أن يثـور، أن يبـدأ بـضرب الأم ثـم قتـل البنـت، وربـما يعـود لقتـل الأم بعدهـا، أو يقتلهـما معـا، وربـما أحـرق البيـت كلـه بعدهـا تطهـرًا مـن النجاسـة. كان عليـه حتـى أن يسـقط فـورًا صريـع أزمـة قلبيـة، أو يصيبـه الشـلل، أو ـ كأضعـف الإيـمان ـ يصيبـه ذلـك المـرض المدعـو صدمـة عصبيـة، الـذي يسـمعهم يتداولـون اسـمه في الأفـلام، أو أي مـن التداعيـات

fb/mashro3pdf

التي يمكن أن تصيب رجلا محترمًا ورعًا وهو يسمع عن ابنته هذا الكلام، أي شيء يشعره أنه بالفعل ذلك الكائن الحي، حار الدماء الذي كان يظنه! ولكن أي من ذلك لم يحدث معه؛ أنصت بحيادية، ثم ضبط نفسه متورطًا في محاولة إيجاد حل لأزمة البنت.

الأزمة أن البنت صورها رفيقها وهي معه في بيته، وعلى فراشه، يفعلان ما ادعت الأم أنه..

ـ غلطة ومش هتكرر.. بشرفي مش هتكرر.

وهددها أن يفضحها إن لم تسلمه نفسها بشكل كامل، وهو ما اعتبرته الأم دليلا دامغًا على براءة البنت..

ـ ما هي لو كانت وحشة يا أخويا، كانت سلمته نفسها واتقت شره.. بدل ما تبلغنا وتفضح نفسها.

عبد المرضي احتقر نفسه قبل أن يحتقره أحد، شعر أن الفضيحة إن أصابته فهو يستحقها؛ فأي رجل بلا نخوة الذي يعرف هذا عن ابنته ولا يقتلها؟ وبدلاً من هذا استجاب لضغط الزوجة والابنة، وذهب يفضح نفسه بنفسه متبعًا ما أسميناه: الحل الوحيد. ذهب يحكي ما حدث للسلطان طالبًا مساعدته. أعصابه خانته لحظتها وبكى، ربما للمرة الأولى يجرب طعم البكاء منذ أن كان صغيرًا يطلب ثدي أمه. خر ليلتها يقبل يد السلطان، يرجوه الستر. طمأنه السلطان بأن الأمر قد انتهى بالفعل، وفي اليوم التالي أحضر له في كيس فاكهة ورقي هاتف الشاب المسجل عليه الفيديو، ممسوكًا لم يزل بين الأصابع

fb/mashro3pdf

المتيبسة لكف مقطوع! قال السلطان:

ـ الواد أخد جزاءه.. مع إنه والله معذور، أنا لما شُفت الفيديو عذرته.. البنت جامدة ونغشة بصحيح.

تحمل عبد المرضي تلك الصفعة، كما تحمل بعدها صفعات التحقير من السلطان كلما جمعتهما صدفة للتلاقي، ولو حتى على صمت النظرات. بات يتحاشاه، يحمد الله ـ برغم المهانة ـ أن السلطان وفى بالوعد ولم يفضحه، لذا كان مجرد أن يسبه السلطان بهذه الطريقة أمام النُص، إشارة تهديد ـ لم يغب عن عبد المرضي فهمها ـ بتبدل قد تحدثه المواقف، إن هو لم ينصع لأمره ويبتلع لسانه. رضي لهذا برفقة الصمت، ودعا الله أن يرضى الصمت برفقته.

***

قليلون هم من شاهدوا السلطان في لحظة تلقي الوحي، فقط المقربون من رفقاء جلساته الليلية. عبد المرضي لم يكن منهم، لذا هو لم يفهم في البدء ما يحدث، حتى وإن سمع الحكايات المتناثرة عنه. فجأة تيبس السلطان في جلسته، لا يرى، لا يسمع، لا ينطق. سد يغشيه، ويعزله عما عدا نور الحق الهابط من العلياء، على الوجه سلام البشارة، ونسيم رطب حل بهم، عابث الوجوه والأرواح. الجسد يهتز متململا لهدهدة الوحي الحنون، وعلى الجبين ينعكس ضوء قادم من اللا معلوم. النص يهتف في وجد اللحظة: الله أكبر.. الله أكبر.

fb/mashro3pdf

وشفاه النبي تتحرك حثيثا تتلو أذكارًا، أوتتلقى أذكارا، بصوت محجوب عن آذان الخاطئين. والرجل الكافر بالنبي يرتجف رهبة ومهابة. والمريد الصغير يصيح في عمق النور الصاعد من قلبه:

ـ مدد.. مدد.

ثم يعود النبي مضطرًا من رحلة النور إلى ظلام الدنيا، ينطفئ سلام الاتصال عن ملامحه، ويعاوده شقاء الحياة الزائلة، ثم يتلو على آذانهما ما تلقاه:

ـ عدل القصاص في أخذ المقتص بقدر قوته.. فإن أصاب الرجل أحدهم في عين.. يحق للمصاب أن يقتص منه في أكثر من العين طالما استطاع لهذا سبيلا.. فكأن يصاب الرجل القوي في ظفر، فيقتل هذا، ويذبح هذا، ويقطع ذراع هذا، أو يفعل ما هو أكثر.. فقد أخذ بشرع القصاص الحق، وأقام ميزان العدل.

عاود النص الصراخ النشوان..

ـ الله أكبر.. الله أكبر.

في حين جاهد عبد المرضي لفهم ما قيل بلا جدوى. السلطان صب لنفسه كوب شاي، وبدأ يرشفه في صمت.. فلما انتهى منه، رفع رأسه ناظرًا إليهما، مبتسمًا، وكأنما يعلن نهاية العرض. لحظتها بلغهم من جديد صوت كصوت الطلقات تنهمر، بسمل عبد المرضي، فابتسم السلطان بغير مبرر وقال للنُص:

ـ ما تفرج عمك عبد المرضي على فيديو من بتوعك.. خليه

fb/mashro3pdf

يطري على قلبه.. بدل ما هو كاشش كده.

برغم الشرود، فهم عبد المرضي أن السلطان يتحدث عن المقاطع التي يصورها عمرو النص لنفسه أثناء المضاجعة. كان مزاحًا معتادًا، كلهم اعتادوا تبادله مع النص، فلماذا يراه مرتبكًا الآن؟ ولماذا يومئ السلطان نحو عبد المرضي موجهًا له الكلمات..

ـ الواد العفريت ده معاه فيديو هيعجبك.

تقافز قلبه وهو يتخيل كينونة الفيديو الذي يقصده السلطان، أيكون قرر أخيرًا أن يفضحه؟ ولكن إن كان النُص يحمل على هاتفه هذا الفيديو الذي يخشاه عبد المرضي، فمعناه أن الفضيحة وقعت منذ زمن بالفعل!.. كيف لم يتبه؟ لن يدع أحد من زملائه ـ إن علم بأمر كهذا ـ الفرصة دون أن يحيل حياته جحيمًا من السخرية والشماتة، فكيف لم يحدث هذا؟.. لاحظ السلطان ارتباك الملامح في وجه عبد المرضي، فقهقه من قلبه:

ـ ما تخافش يا راجل يا عرص.. مش الفيديو إللي في بالك.. ده فيديو جديد للمحروسة برضه.. بس مع النُص المرة دي.

فجأة نهض النُص مستأذنًا لدخول الحمام؛ انطلق عائدًا إلى المصنع، وقد أدرك أن فضيحة ـ لم يكن ينتظرها ـ آتية لا ريب، ولا سبيل له لردها، إلا إذا قرر الانتحار بالوقوف في وجه متعة السلطان. الأهم، أنه لم يخبر السلطان أو أي مخلوق عن هذا المقطع المصور، فكيف علم به؟! لحظتها، وهو يفر من المكان، أدرك النص أنه قد يكون المقصود بالكلمات التي هبطت للتو

fb/mashro3pdf

على السلطان عن القصاص، وهي الكلمة الوحيدة التي فهم النص معناها من كل ما تلاه السلطان للتو.

ازداد استمتاع السلطان أمام نظرات عبد المرضي النهمة، التي ترجوه أن يوضح، وترجوه في ذات اللحظة ألا يفعل. أشعل سيجارة، وصب لنفسه كوب شاي جديد..

ـ هو انت ما تعرفش إن النص برضه مصوّر المحروسة بتتك وهي نايمة معاه؟ عايز تفهمني إنك مش بتزّحها؟ بس الواد النص طلع جدع وعرف يعمل إللي ما عرفش يعمله الخول الأولاني وفتحها.. ابقى إعمل لها عملية بقى.. ولا شوف معرص زيك يتجوزها.

تمنى عبد المرضي أن يموت الآن.. تضرع إلى الله، الآن يا رب.. الآن هو الوقت المناسب لأجل حبيبك النبي يا رب. لما انتفض جسده، واستشعر في موضع القلب ثقلا، استبشر أن الموت آتٍ كما تمنى، ولكن ارتجاف الجسد كشف عن نهنهة وماء يجري من العينين، فعرف أنه يبكي. لم يكن يتمنى أن يجد متنفسًا كالبكاء، كان يرجو أن تعصف الروح داخل جسده حتى تمزقه. تحدث لحظتها ـ على غير إرادة منه ـ مولولاً، عن خيبته، وعن انتقام الله منه، وغضبه عليه، لأنه لم يقتل البنت ـ أو على الأقل يشوهها ـ بعد فعلتها الأولى. أبدى السلطان تعاطفًا وهو يقول:

ـ ما تقهرش نفسك وتقعد تعيط زي النسوان.. قوم يا راجل انتقم لشرفك. انت مش شايف النص جري منك إزاي زي الفار؟ الواد شاخ على روحه منك.. قوم يا عرص.

fb/mashro3pdf

تأثر عبد المرضي بالكلمات؛ التفت فلمح آخر ما بدا من جسد النص الضئيل، وهو يختفي عبر ضلفة الباب الضخم المفتوحة، قبل أن يدفعها من الداخل لتلحق بأختها، ساجنًا نفسه في بناء المصنع.

ـ قوم كسر الباب على دماغه، وادخل طلع ميتين أمه.

لم يفهم عبد المرضي كيف يمكن أن يكسر بابًا معدنيًا كهذا، ولكن لا شك أن كلمات السلطان حمسته، فنهض عازمًا أن يفعل شيئًا ما لا يدري بعد ما هو.

صديقان..

منذ لحظة أن افترقا عن باقي الجمع، وشعبان طريشة يعرف جيدًا ما يجب عليه فعله، وكأنما بالفعل كان يخطط له منذ البداية، وإن كان لا يعرف أية بداية يقصدها، ربما منذ بداية الأحداث، لحظة أن قبض على سلاح بيديه لأول مرة في حياته، فأخذت ذراعيه رجفة قوة. ربما حتى منذ بداية الكون، وكأن العزم معجونٌ في روحه ذاتها منذ أن نفخت في جسده. الواقع يقول إنه لم يفكر قبلاً في فعلة كتلك؛ كان يظن الأمر مسجونًا في أعماق بعيدة عن عقله، وأن حياته تسير إلى تكيف جديد. لكنه لحظة أن أمسك السلاح في يديه تذكر كل شيء، عاودته شكوك الخيانة بأوجاعها، عادت لرأسه خيالات الثأر؛ لم لا؟ السلاح في يديه، والعقل غيبه المخدر، والظروف منحته فرصة مفرحة للانفراد بقنديل داخل مسالك الشونة التي يحفظها عن ظهر قلب، بحكم مسئوليته الليلية عن فتح الشونة، وإمداد الماكينات

fb/mashro3pdf

باحتياجاتها. كان يعرف جيدًا تلك النقطة العمياء في نهاية الشونة، حيث التهالك الحادث في ماسورة المياه الرئيسية التي تغذي نظام إطفاء الحريق الممتد لصق السقف، ليغطي كامل مساحة الشونة. هناك حيث تنهمر قطرات الماء من السقف منذ أيام، وقد أهمل مدير المصنع إصلاح الماسورة، لتبقى نقطة خاوية رطبة الأرض دائمًا. هناك يمكن أن يفعل فعلته، ثم يرتد عائدًا بحثا عن الجمع، مدعيًا أن ظريف هو من فعلها. لن يكذبه أحدهم، أو يفتش عن الحقيقة، وربما تكون فرحتهم بالخلاص من قنديل ـ بغطرسته وسماجته ـ أطغى.

طوال الطريق كان يقود المسيرة بتوجيهاته عبر المسارات المتشابكة، برغم خطوتين تقدمهما قنديل عنه. عرف من البداية أن قنديل سيسير في الأمام، معجبًا بمركز الصدارة، مشرعًا سيفه في يده، محاذرًا من كل ظل حوله، يدور بحذر حول محور جسده مستكشفًا كل الاتجاهات، وكأنما بطل أسطوري هو؛ حكاية يعرف شعبان يقينًا أن قنديل سيحكيها لكل محدثيه على امتداد أعوام قادمة، مباهيًا بشجاعته في مواجهة السلاح الآلي بسيف بائس، وسيضيف إليها من خياله الكثير؛ كما اعتاد أن يفعل. دائمًا كان يحكي قنديل الأكاذيب، ويقص الحكايات على غير ما وقعت، وكثيرًا ما كان يستشهد بشعبان، فكان يؤيده كاذبًا، ليس فقط كواجب الصداقة، وإنما تحرجًا من تكذيبه أمام الناس.

كل خطوة كان يقطعها طريشة وراء قنديل كان يزداد غضبًا.. احتراقًا.. تحسه ثقل البندقية الآلية يزيده ثقة، لا يمنعه من اعتصار الزناد في أية لحظة ليرديه إلا الصبر حتى بلوغ البقعة

fb/mashro3pdf

التي اختارها. قوة عظيمة تلبسته، ماذا يفصله الآن عن الألوهية؟ في يديه حياة هذا المتبختر أمامه، بإرادته يمنحه عمرًا ليحيا ثوان قادمة، وبإرادته ينهي عمره الآن إن شاء. كان منتشيًا بسلطانه، فهيأ له قرب بلوغ هدفه أن يداعب فريسته في البدء، فما من متعة في خطف الحياة من جوف غريمه فجأة، ثم يتأمله جثة ميتة قبل حتى أن يدرك ما حدث. هو يريد أن يتشفى، أن يستمتع بمشاهدة الحياة تنسحب من عينيه ببطء، وهو يتوسل من أجلها. سأله مستحضرًا لهجة عاطفية:

ـ أنا عمري زعلتك في حاجة يا قنديل؟

أنكر قنديل بحماس، وبرعة، ودون أن يستغرب انعدام العلاقة بين الموقف والسؤال، وكأنما كان ينتظره. راح يقسم أن لا شيء على الأرض يجعله يغضب من شخص نقي وبريء كشعبان..

ـ طول عمرك نعم الأخ يا شعبو..

علق شعبان على كلمات صاحبه..

ـ ربنا يديم المحبة يا صاحبي.

قبل أن يواصل متغزلا في أخلاق صديقه، الذي وضع فيه ثقة لم يضعها في أحد قط..

ـ لو ما كنتش حبيبي يا قنديل، ما كونتش كشفت لك أسراري، ولا كنت دخلتك بيتي، وكشفتك على عيالي.

كان يتحدث ويتمنى لو استدار قنديل ليرى أثر الكلمات على وجهه. لحظتها بلغا النقطة المنشودة، فشد شعبان قبضته على البندقية، سمع قنديل يدعو الله أن ينزل هلاكه على من يخون

fb/mashro3pdf

الصداقة.. ضايقه أن لم يكن هو قائل تلك العبارة، عبارة مناسبة هي للحظة إطلاق النار كما في الأفلام. قنديل كان يتأمل كل الأركان حولهما مفتشًا وهو يقول لصاحبه:

ـ مش غريبة يا شعبان إني كنت بتكلم بصوت واطي، بس انت سامعني؟

لا يعرف شعبان لماذا شعر بارتباك وهو من يفترض أنه في موقف أفضل، ربما بحكم العادة. قرر أن يستمر في السيناريو الذي رسمه طول الطريق، دون الالتفات لأية محاولة تشتيت، خاصة وأن الدور الذي يؤديه بلغ ذروته، ولم يتبق سوى جملة حوار واحدة، وبعدها إطلاق نار ودماء.. عليه فقط أن يختار جملة قوية ومؤثرة في ذات الوقت، وياحبذا لو حملت رائحة ساخرة، فالجمهور يحب هذا. قال لصاحبه:

ـ إيه جزاء إللي يخون صاحبه؟

لم يدر بعدها كيف استدار قنديل بتلك الرعة والدقة ـ التي من العسير تخيل أنها وليدة اللحظة وحكم الظرف الآني ـ ليضرب بسيفه ذراع شعبان فيسقط البندقية على إيقاع صرخة تحمل من الذهول قدرًا لا يقل عما تحمله من ألم. في ثانية بعدها، كانت البندقية في يد قنديل، والدماء في يد شعبان. ما أمكنه فعله لحظتها ـ بعكس كل مخططات خياله ـ صيحة حملت عجزًا..

ـ إزاي؟!

أجابه صاحبه: فاكر إن جبان زيك ممكن يلعب عليا أنا؟

fb/mashro3pdf

كان شعبان موقنًا من الهزيمة، يخنقه إحساس الفشل، في عينيه انكسار توقع الموت، قنديل كان مستمتعا، يثر الكلمات ببطء، متلذذًا بطعم الحروف المطوطة..

ـ القلوب عند بعضها يا صاحبي.. أنا كمان شايفها فرصة مش هتكرر إني أخلص منك.. سامحني يا صاحبي.. بس انت أخدت حلق حلو.. وانت ما لكش ودان.. مراتك انت ما تستاهلهاش.. ولازم تعرف إنها لحظة ما هيجي لها خبرك.. هتطير من الفرحة.. تعرف إنها ندرت يوم دفنتك هتنام معايا وصوانك شغال.. ما هي شرموطة وتعملها.. بس انت إلي غلطان.. لما تبقى مش عارف تكيفها.. يبقى تسيبها للي يقدر عليها.

لم يكن احتمال شعبان لتلك المهانة إلا لأمل أن تصرف شماتة قنديل المنهمرة نظره عن السيف الملقى تحت قدميه. ربما لو أطلق قنديل رصاصاته ـ إن كان حقًا جادًا في نية القتل ـ لخرج من الأمر دونما خسائر. كان عليه أن يستغل لحظة تسليم شعبان بالهزيمة، ولكن طيبته السوداوية لم تجعله يترك فرصة كتلك دون أن يشبع رغبته المشتعلة دومًا للتفوق، فما أجمل من رجل يتهاوى عند قدميك يرجوك أن ترحمه، يتنازل عن شرفه ذاته في سبيل إرضائك، يعدك أنه سيطلق زوجته ويهديك إياها إن أعتقته. أي تفوق وأية نشوة سرت في جسده، كضربة صقيع منعش أشبعت في لحظة كل جوع السنين، وحتى المناطق الضئيلة المختبئة في أعماق سحيقة من رغباته. شعر أنه إن أفنى عمره لأجل لحظة كتلك، فسيكون الرابح بالتأكيد.. لحظة لن يشعر

fb/mashro3pdf

بالنـدم إن هـي كانـت آخـر لحظـات حياتـه. لـذا، قـد نفـترض أنـه لم يغضـب أو يحـزن عندمـا وجـد الـسيف فجـأة ينغـرس في صـدره حتـى مقبضـه الملفـوف بالدوبـار الخشـن، ليشـعر في لحظـة تاليـة بالنصـل يخـترق ظهـره خارجًـا منـه، حارقـا في طريقـه الجلـد واللحـم، وأحـلام مسـتقبل، وحيـاة ماضيـة. رغـم هـذا ربـما لم يحـزن، هـو فقـط كبريـاؤه مـا منعـه مـن الذهـاب وحيـدًا، لم يعـان أكثـر مـن ضـغطـة بـسـيطة عـلى زنـاد البندقيـة المصوبـة بالفعـل نحـو رأس شـعبان، الراكـع لم يـزل تحـت قدميـه، لتفجـر أولى الرصاصـات عينـه اليمنـى، ويتطايـر في وجـه قنديـل ماؤهـا اللـزج، لتواصـل رصاصاتـه تفجـير باقـي معـالم وجهـه، ليـسقطا جثتـين متعانقتـين، إحداهمـا تحمـل فجـوات داميـة محـل الوجـه.

انغـلاق المشـهد عـلى سـكون المـوت لم يـدم طويـلا، فـرعـان مـا كانـت نظـرات سـعد وبليـة المذهولـة تمـسـح الجثتـين. بليـة ارتجـف، وبـدا أن سـاقيه خانتـاه، فاتـكأ عـلى الصناديـق. سـعد كان أكثـر قـوة وتماسـكًا، يتأمـل الجثتـين بعمـق نظـرات العاشـقين.. الـكل صـار إمـا قاتـلا أو مقتـولا، وحـده بليـة لم يخـط اسـمه في أي مـن القائمتـين. لحظتهـا تبـين سـعد مـا كاد يغيـب عـن إدراكـه في طوفـان الأحـداث الصاخبـة.. كيـف يمكـن أن يأتمـن بليـة عـلى كتـمان أنبـاء مـا حـدث؟ هـو القاتـل الملوثـة يـده بدمـاء ظريـف.. إن كان عليـه أن يبحـث عـن بـاب للخـروج، فلـن يكـون سـوى عـبر ضـمان صمـت بليـة.

حينـما رفـع رمضـان بليـة رأسـه مغالبًـا دوارًا أصابـه، اكتشـف

fb/mashro3pdf

نظرات سعد الشاردة تتقاطع على وجهه، فلا يعلم لماذا اختار لحظتها تحديدًا أن تنزلق نظراته إلى السيف في يد سعد، وغلالة الدماء التي يرتديها.

* * *

عبد المرضي كان يضرب براحتين مفتوحتين على ضلفتي الباب الحديدي لمبنى المصنع، كان ينادي النص بصراخ محل بسباب يعرف أنه لن يتجاوز سمك الباب وينفذ عبر الأثقال التي وضعها النص وراءه لتمنع فتحه. السلطان كان يتابع ما يجري مشفقا على العجوز الخائب، لا يدري بالآلام التي تمكنت منه؛ آلام فعلية تمزق جسده بعيدًا عن آلام الروح. شعر عبد المرضي أن ما تمناه بات قريبًا، سيخر قتيل مصيبته أخيرًا، وربما حكى عنه الناس بعد موته أن نخوته قتلته. جهده العبثي لفتح الباب لم يكن أكثر من تلبية لرغبة تلبسته أن يستنزف ما بقى عالقا في جسده من حياة، فيسرّع لحظة السكون التام. السلطان ناداه:

- بتعمل إيه يا معرص؟

التفت إليه، وكانت يده مبسوطة بالضغط على صدره، وكأنما يمنع بقايا الروح من التسرب الآن.

- انت مش عايز تبقى راجل أبدًا؟

fb/mashro3pdf

تحت قدميه وضع السلطان صندوق مياه غازية، زجاجاته استبدلت بالمشروبات سائلاً وردي اللون، وخرقًا قديمة تتدلى من الأفواه تنضح برائحة البنزين. شعر لحظتها بتزايد سرعة سيلان الروح عبر الجسد والسلطان يصرخ فيه:

ـ استرجل.

كان الألم ونهش التوتر يبطشان بشكل جزئي من قدرات عبد المرضي على الاستيعاب. فما كان ينقصه لحظتها ان ينتفض جسد السلطان، ثم يجمد، ويسبل عينيه، ويخرج تلك الكلمات من فمه..

«الموت صفحة بيضاء، لا يحوي بذاته خيرًا أو شرًا إلا بعمل الإنسان، فلكل امرئ ما شاء ليخطه على صفحته. فمن لاقى موته في ميدان النزال، دون على صفحته الشرف والمجد. ومن لاقى موته على فراش الأمن، دون على صفحته الخزي والعار»

لم يفهم عبد المرضي شيئا من هذه الرطانة، ولكنه أدرك ما توجب عليه فعله، وهو يتلقف قداحة ألقاها له السلطان. طالما لا يستطيع الدخول إلى حيث يخبئ النص رقبته ـ التي أقسم عبد المرضي على قطعها ـ فسيجعله هو يحملها ويفر بها إليه. كان يشعل الخرق المدلاة من الزجاجات واحدة تلو الأخرى، ويقذفها إلى داخل المصنع عبر النوافذ الصغيرة، التي تعلو فوق قامته بما يفوق الأمتار الثلاثة، موزعًا قذائفه على كل النوافذ ـ وحتى نافذة دورة المياه الرجالي ـ لضمان اكتمال الحصار؛ فكان الحظ حليفه مرتين.. الأولى عندما ساعده على بلوغ رمياته

fb/mashro3pdf

أهدافها، فلم تطش منه رمية واحدة، برغم علو النوافذ، وارتعاش اليد، والثانية حينما أمهله حتى أن انتهى من آخر زجاجاته قبل أن يسقط أرضًا. كان يستغفر ويسترحم نادمًا ـ مستشعرًا قرب الحساب ـ لأنه لم يقتلها. كيف سيواجه السؤال؟ وبماذا سيبرر أمام ملائكة الحساب عدم دفاعه عن شرفه وعن شرع الله؟ تخيل كل خطيئة سترتكبها من بعده البنت العاهرة، نبت الرحم الشيطاني. وتخيل كم إثم سيلاحقه حتى في قبره، مع كل رجل يزرع رجولته في محراب شرفه المنتهك. بكى لنهاية قدّر أنه لا يستحقها، فكان آخر ما رآه عبر غبش الدموع، وجه السلطان يطل عليه، يده تتحس رأسه، وصوته يتغلغل همسًا إلى عمق الروح:

ـ قل: آمنت يا مولاي السلطان أنك رسول الله.. قل.. قل..

لم ينطق، فقط تكثفت ضبابية الدموع، فذهبت عنه القدرة على الإبصار بغير رجعة، وسرعان ما لحقتها آخر شهقات الروح.

* * *

إسماعيل أكشن كان يتألم حيث تركه سعد وبلية قرب الباب الموصد، منكفئًا على جدار من أجولة البلاستيك المجروش. يحس بوهن الجد وآلام السكرات كجدار إضافي أمام صلابة الباب المغلق عليهم، يضاعف من ضيق محبسه، حتى الخطوات

fb/mashro3pdf

التي تفصله عن الباب فشل في قطعها وحده، عساه يطرقه فيتلقفه السلطان المنتظر خارجه. ارتضى بهذا التحول في طبيعة دوره، تصالح مع الآلام وطبقات الدم المتدفق، فبخبرته يدرك أن لحظة الاحتضار هي ذروة الأداء الكاشف للموهبة الحقيقية للفنان، يدرك أن هذه هي لحظته المنتظرة، فلا يجب أن يهدرها بلا جمهور يشهدها.. لذا، انتظر بصبر عودة رفيقيه؛ خوف انتابه حينما عاد سعد عبد الرازق وحده. كان يحمل في يد سيفه، وفي الأخرى بندقية آلية. سأله الإيضاح، فأجابه بأن قنديل وشعبان قتلا بعضهما. الإجابة لم ترو الظمأ الأعظم للدهشة وموطن الخوف.. كان سؤالا يخشى أن يسأله وهو يتأمل حد السيف في يد سعد يقطر بدماء طازجة..

ـ وبلية؟

لم يتخيل أن يجيبه سعد ببساطة..

ـ قتلته.

ارتجف إسماعيل متحسّسا الوحش الذي تحول إليه سعد وهو يتحدث ببساطة عن حكم بالإعدام أصدره ونفذه منذ دقيقة. مساحة الدم على السيف تشف عن بشاعة التنفيذ. في عيني إسماعيل كان الشيطان يلعب فوق ملامح وجه سعد، فخاف منه، رغم أن سعد وقتها كان يحاول استمالة رضاه بمبرر أن مصلحة واحدة تجمعهما في الخلاص من بلية؛ فكلاهما قاتل، وكلاهما تحت رحمة لسان بلية المنفلت..

ـ وانت عارف بلية ولسانه.. الله يرحمه بقى.. دلوقتي احنا

fb/mashro3pdf

الاتنين ما لناش تالت.. نألف حكاية سوا.. ونتحامى فيها.

والأهم أن يضعا ثقتهما في السلطان، فسعد يعلم يقينا أنه سيقف إلى جانبهما. كان يتحدث بحماس وحميمية لم يفلحا في تبديد خوف إسماعيل. وحتى تساؤل سعد أمام النظرات الممتدة لوجهه..

ـ مالك يا عم إسماعيل؟

كان محمولاً على خيال ابتسامة تفضح استمتاع سعد بما يثيره في نفس إسماعيل من فزع.

قامة سعد كانت ممدودة، ومشيته كانت متبخترة وهو يولي ظهره لإسماعيل ويقطع الخطوات إلى الباب. ولماذا عليه أن يتخذ حذرًا من إسماعيل؟ هو مصاب لا يقوى على الحركة، غير مسلح سوى ببندقية آلية نفدت طلقاتها ونامت تحت قدميه بلا نفع.. والأهم، أن إسماعيل ـ وهو على شفا الموت ـ لا يملك أي مبرر للخلاص منه. ولكن ما أدراه سعد بتقلبات الدراما في الدور المعقد الذي يؤديه إسماعيل؟ لا يليق بعاقل أن يأمن لغدر المخَدَّر، ولا لغدر الخائف، فكلاهما قادر على الإتيان بغير المنتظر؛ فمن يمكن أن يتخيل أن في إسماعيل جهدًا ـ ما زال ـ ليتحامل على نفسه، وينحني ملتقطًا البندقية الآلية، ويتبع خطى سعد اللاهي عما يدور. من يصدق أن المحتضر قادر على توجيه ضربة قوية كتلك بمؤخرة البندقية إلى قمة رأس سعد، تجبره على السقوط فوق رأس تفور دمًا. إسماعيل لم يزل قادرًا على التقاط السيف من فوق الأرض، واستغلال ثقل جسده المتهاوي لزرعه

fb/mashro3pdf

في صدر سعد، فيصرخ الثاني متحشرجًا. اليدان لما تخليتا عن معانقة السيف ـ وكأنما انقطع ما كان يربط الجسد بالحياة ـ انهار إسماعيل فوق ضحيته. دون قصد سقطت رأسه فوق صدر سعد، فأنصتت أذنيه لصوت القلب وضرباته تخفت بسرعة إلى صمت الموت.

إسماعيل ـ برغم كل شيء ـ كان سعيدًا.. في قلبه كانت كلحظة صفاء مشتهاة، وكأنما أدرك للحياة معنى أخير، وبات الموت كاستراحة مستحقة.

* * *

مدير المصنع كثيرًا ما تحدث عن ضرورة تطوير الماكينات العتيقة، التي أهلكها الزمن وكثرة الصيانة والترميم. في الأحاديث الودية مع صاحب الشركة، في تقارير رسمية، في اتصالات هاتفية؛ كان لحوحًا واشتكاه صاحب الشركة أكثر من مرة للأستاذ خليل في جلساتهما. كان يتحدث عن تأثير حالة الماكينات المتردية على ضعف الإنتاج، وعن خطورة الوقود المتسرب منها باستمرار، مشكلاً بقعًا لزجة لا تزول من تحتها، فكان الأستاذ خليل يستغلها كفرصة لمواصلة توجيه ضرباته لمدير المصنع. يتحدث وهو يشعل سيجارة الباشا عن الرجل المخرف، الذي لا تهمه مصلحة العمل بقدر ما يهمه ملء كرشه. اتهمه في لحن القول بأن سعيه الحق نحو عمولة ينالها

fb/mashro3pdf

من شراء الماكينات الجديدة، أو ربما من بيع القديمة في سوق الخردة كما اقترح. وأقسم الأستاذ خليل ـ قسم الحرام من الدين ـ أن ماكينات المصنع قادرة على العمل لعشرين عاما قادمة، دون الحاجة حتى لمزيد من الصيانة. صاحب الشركة يومها صدقه، لأنه وجد كلماته أريح للقلب وللعقل، فأزاح هذا الهم عن رأسه؛ أطلق سبتين باسم مدير المصنع، ثم تابع في فضاء الغرفة تسلل الوعي مع دفقات الدخان الأزرق.

ولكن في لحظة كتلك، يلح السؤال: هل لم يزل الأستاذ خليل متمسكا برأيه ذاك؟

كان كفأر في مصيدة، يتقافز بين النافذة والجدار الزجاجي، متابعًا مطاردة عبر جدار سميك بين النُصب، الذي حبس نفسه معه داخل المصنع، وعبد المرضي الهائج في الفناء. لحظتها فقد أي رابط يصل تصرفاته بالتعقل الذي طالما تفاخر به. ما يفعله السلطان أسقط عن وعيه كل أقنعة الحكمة، التي كان يواجه بها الجميع ـ وحتى ذاته ـ مدعيًا حسن إدارته للوردية، عن دهائه وقوة شخصيته التي تجعله يحسن السيطرة على تلك العصابة. كيف يقنع نفسه بها بعد الآن وهو يرى مخازن السلاح التي أنشأها السلطان في المصنع تحت سمعه وبصره وحسن مراقبته التي طالما تباهى بها؟ الأمر وصل إلى حد زجاجات المولوتوف، فما عاد يمكن أن ينتظر أكثر. مع أول زجاجة عبرت نافذة وانفجرت بين الماكينات، طلب شرطة النجدة من هاتفه. لم يدر ما قاله، كانوا يضغطون على رأسه ببيانات عليه تقديمها، وأسئلة عليه إجابتها؛ كان لسانه يجري بغير إرادة، وعيناه تقفزان

fb/mashro3pdf

وراء كل زجاجة تنفجر. أنهى الاتصال على وعد بحضور سريع، وهو يراقب النُصب يختبئ داخل دورة المياه. قرر أن يتبعه، فربما تمكن من الخروج عبر النافذة العالية لدورة المياه قبل أن تطالها قذائف عبد المرضي؛ ولكن دون أن يبلغ باب مكتبه توقف أمام جمر يشتعل بنظرة جمدت عروقه من عيني سمعان في رقدته أمام الجدار الزجاجي. تجمد الأستاذ خليل مكانه لوقت، قبل أن يكتشف أن صدر سمعان هامد، ونظرته بلا روح. فتح باب مكتبه وخرج إلى الردهة المعلقة. لحظتها وقع الانفجار. النار المستعرة بين الماكينات المتهالكة كان لابد وأن تطال بقع الوقود المتناثرة تحت الماكينات. أول ماكينة انفجرت أمام عينيه زلزلت المكان، ارتجت لحظتها مكاتب الإدارة وكأنها معلقة على أعمدة من عجين، فسقط الأستاذ خليل متشبثا في السياج المعدني، متخيلاً أن الردهة على وشك السقوط به، أو ربما الانصهار في أتون الحرارة المتزايدة بسرعة. عبرت فوقه شظايا من الماكينة المنفجرة، هشم بعضها جداره الزجاجي، فانهمر بعض من شظاياه فوقه، وانغرس بعض من هذا البعض في لحم وجهه وذراعيه. لم يغفل في لحظة الانفجار عن رؤية الموتور الضخم للماكينة، وهو ينطلق كصاروخ مشتعل من عنف الانفجار، وكرصاصة تزن نصف الطن اقتحم دورة المياه الضيقة، فلم يستطع عقله أن يتخيل أية فرصة لنجاة ذلك الشاب الضئيل المحشور داخلها من الانسحاق التام، وهيأ له عقله أن دوي اصطدام الموتور بالجدار الداخلي لدورة المياه، حمل معه صوت تفتت عظام وتفجر دماء، من بين لحم مهروس للشاب سيء

fb/mashro3pdf

الحظ. الأستاذ خليل خاف على نفسه من مصير مشابه، مدركًا أن الاختباء بمكتبه ربما كان أفضل. عاد إلى حجرته حبوًا، زحف إلى أسفل المكتب الخشبي العتيق، وبقي يتلو الأدعية. عندما اهتز المكتب بعنف أكبر، أدرك أن انفجارًا وقع لماكينة أخرى ربما. مخبأه لم يعفه من كثافة الدخان الأسود؛ سعل وعقله يخبره بأن الاختباء هنا ما عاد آمنا، لابد من طريقة للخروج، ربما من النافذة. نهض، فرأى عبر ما كان جدارًا زجاجيًا ألسنة اللهب تتصاعد لتبلغ ارتفاع مكاتب الإدارة. بسبب الدخان الكثيف الذي ملأ الحجرة، لم ير السلطان في البدء، حتى سمع صوته يقول:

ـ خايف؟

قفز الأستاذ خليل صارخًا.. لم تكن أعصابه المسحوقة تحت ضغط توتر الموقف تحتمل مفاجاة كتلك. دار حول نفسه مرتين، حتى رأى السلطان مسترخيا على مقعد وثير في ركن الحجرة..

ـ إنت جيت هنا إمتى؟ وإزاي؟

ضحك السلطان..

ـ ده برضه سؤال تسأله لنبي؟

ربما يقين الأستاذ خليل باقتراب الموت هو ما أكسبه الجرأة..

ـ المشكلة إنك مصدق نفسك..

ـ المشكلة إنكم مش مصدقني رغم إنكم بتتبعوا تعاليمي حرفيًا.. أو يمكن أنا إللي بتبعكم.. مش عارف.. إللي أعرفه..

fb/mashro3pdf

إن حمل الرسالة معاكم كان سهل..

في ظرف آخر، لم يكن يمكن أن يتخيل الأستاذ خليل ـ حتى في أحلامه ـ أن ينفجر بهذا الشكل في وجه السلطان..

ـ انت بتخرف بتقول إيه؟ خرجني من هنا..

ابتسم السلطان.. على وجهه مسحة من سماحة غير مفهومة المصدر!

ـ وهو أنا إلي حطيتك في الموقف ده؟ كفاية بقى تدوروا على حد تعلقوا عليه خيبتكم..

نهض السلطان. في قفزتين فقط كان قد تسلق إطار النافذة. التفت إلى الأستاذ خليل..

ـ لو عندك أقل درجة فهم لنفسك ولقدراتك.. هتعرف تخرج من هنا.. بس انتو مش بس ضالين.. ده انتو أغبيا كمان.. ما حدش فيكم بيبص جواه.. كلكم بتبصوا للناس إللي حواليكم..

قالها السلطان، فلم يفهم الأستاذ خليل حرفًا. في الثانية التالية، قفز السلطان عبر النافذة. الأستاذ خليل لم يطل به جمود الذهول. اندفع إلى النافذة متطلعًا؛ عبْرُها برد، وليل آمن، وصمت في الفناء.. وتحتها جثمان ساكن يحمل ملامح عبد المرضي، وما من أثر للسلطان! الارتفاع قرابة الطابقين، أو أعلى بقليل. بجوار النافذة تمتد ماسورة سميكة لصرف مياه الأمطار، ممتدة من سطح البناية وحتى فتحات الصرف الصحي أدناها. حمد الله على حسن إدارته ـ ربما لآخر مرة ـ فقد كان مد تلك الماسورة من منجزاته، كحل لتكدس مياه الأمطار فوق السطح،

fb/mashro3pdf

والتي كانت تعبر السقف المتهالك وتنهمر في قطرات متلاحقة على الماكينات والمنتجات فتفسدها. كان عليه فقط أن يستجمع شجاعة هو مجبر عليها على كل حال، فليس أمامه من خيارات سوى الموت، أو الفرار عبر النافذة كما فعل السلطان، وإما انتظار نجدة قد لا تأتي.

مط خصره عبر النافذة بوضع مائل، ليبلغ ذراعاه الماسورة. تشبث بها جيدًا ـ أو هكذا ظن ـ ثم اتكأ بقدم فوق إطار النافذة، ليمد الساق الأخرى عبرها، واضعًا قدمه على الوصلة البارزة في جسم الماسورة. اطمأن لارتكاز قدمه عليها بشكل جيد، فسحب القدم الأخرى إلى موضع مجاور لشقيقتها، فصار جسده يعانق الماسورة في الهواء، لحظتها اكتشف أنه لا يدرك ما الخطوة التالية. تطلع لأعلى ولأسفل وفي كل الاتجاهات، بحثا عن مرتكز آخر لقدميه، يضمن له حركة إلى أسفل، فلم يجد. ربما إن ارتكز بقدميه على خشونة الجدار، يمكنه أن يدفع جسده لانزلاق بطيء وآمن عبر الماسورة. هنا واجهته مشكلتان.. الأولى، أن الماسورة ـ التي اشتراها بنفسه ـ كانت قديمة، ولن تحتمل طويلا ثقل جسده، وفي الحقيقة كانت هي ذات الماسورة البالية التي نزعها السباك من منور بيته منذ أشهر، عندما قرر تحديث منظومة الصرف الصحي في شقته، وقد باعها لشركته على أنها جديدة، مستمتعًا بربح الصفقة التي أتته من الهواء. المشكلة الثانية، أنه اتخذ وقتا طويلاً في بحث موقفه ـ أكثر من قدرة الماسورة على الاحتمال ـ فما استعاد إدراكه للواقع إلا على أثر تعلق الجسد في الهواء. في البدء، لم يدرك أنه يسقط.. احتاج

fb/mashro3pdf

وقتا بدا له أطول من المعقول ليدرك تلك الحقيقة. حتى ألم الصدمة لم يشعر به، رغم سقوطه العنيف على ظهره ومؤخرة رأسه، التي تفتت بالكامل تقريبًا، حتى بدا وقتها أنه إذا ما حاول رفع رأسه فربما وقع مخه منه.

* * *

أطل وجه السلطان ليملأ الفراغ الضيق المتاح لبصر الأستاذ خليل المثبت ـ عنوة ـ لأعلى، ومن بين ضباب انسحاب الروح، كان السلطان يبتسم ويرشف الشاي، فلم يدر الأستاذ خليل إن كان هذا يحدث حقا أم محض أحلام الموت. الغريب، إنه عندما أراد أن ينطق، وجد صوته لم يزل قادرًا على الخروج من حلقه..

ـ إزاي؟ إزاي عملت كل ده؟!

ضحك السلطان..

ـ هتصدقني لو قلت لك.. رجالتك إللي عملوا كل حاجة.. أنا بس كان عندي علم بإللي هيحصل.. وأمر نزل بيه الوحي عليا إني أساعدهم.

تمتم الأستاذ خليل بشيء مثل..

ـ انت إيه؟

أو ربما..

ـ انت مين؟

هز له السلطان رأس الأسف وهو يقول:

ـ أنا مجرد رسول.

fb/mashro3pdf

أنهى جملته، وأفرغ في فمه ما بقي من كوب الشاي. بعدها ارتجف جسده لثانية، وشهق وأسبل عينيه وكأنما الروح تغادره، ثم قال:

ـ سيأتيكم في زمن الدم نبي، وجهه كصفحة ماء تبصرون فيها أرواحكم، لا يتبعه منكم إلا الناجون، وينكره من استعصم بخيالاته، وظن في نفسه قوة بغير اتصال بمدد النبي، حتى يهلك على كفره، وتسود الأرض لنبي الله، يُعلِّم الناس شريعة القوة.

الصوت الذي تصاعد، بمجرد أن أنهى السلطان كلماته، عرف فيه الأستاذ خليل صوت رنين هاتفه، السلطان انكفأ على جسده الساكن يفتشه حتى أخرج الهاتف، قرأ ما على شاشته، وبنبرة استهزاء قال:

ـ صاحب الشركة عايزك.. ما يصحش تسيبه يرن.

ضغط زر الإجابة، وترك الهاتف على صدر الأستاذ خليل واختفى من المشهد. آخر ما تمكنت مدارك الأستاذ خليل عبد الحافظ من التقاطه، كان صوت صاحب الشركة يزعق من فوق صدره..

ـ خليل..

ألو..

خليل..

ما ترد يا بني آدم..

fb/mashro3pdf

عن رجب السلعوة، عن حسن شقاوة، عن أكرم الروبي، عن عمرو النص، أن مولانا ونبينا السلطان قال:

{سينالكم الطوفان بظلمكم.. فويل للهالكين.. وويل للناجين}

fb/mashro3pdf

وردية الصباح

عندما استيقظت شادية من نوم عميق ـ أعقب ليلة ضاجعت فيها رجلين ـ انتابها إحساس أقلقها، بقدر ما فاجأها. المرة الأولى هي، في عمرها القصير، التي تتذوق فيها طعم رجلين بهذا الشكل المتعاقب. فكرة المقارنة بين الرجال لم تكن مطروحة في رأسها من قبل.. كانت تظن أن إبراهيم هو الحبيب والعشيق الذي لا ترجو سواه، ولكن صباح ذلك اليوم، وهي مقرفصة فوق المرحاض، اكتشفت أن جميل الساعي هو من علق بذاكرتها من ليلة أمس! ذلك البغيض، الذي يبلغ عمر أبيها تقريبا، كان أكثر قوة وفحولة من عشيقها الشاب، والأهم ـ وهي الحقيقة التي أحزنتها ـ أنه كان أكثر شغفا وحرارة من ذلك المتبلد، الذي بدا ـ بمقارنة حتمية ـ وكأنه يمتطيها تأدية لواجب ثقيل.

وهي تخرج من بيتها، كان الإحساس العارض المقلق قد تطور إلى شعور راسخ بالنفور من إبراهيم، وإقبال على جميل الساعي، حتى إنها ضبطت عقلها وهو يهيئ لها صورًا مستقبلية لأوضاع مضاجعة أقل اشمئزازًا وأكثر حميمية تجمعها مع جميل،

fb/mashro3pdf

بعيدًا عن أرضية دورة المياه القذرة. وهي في طريقها إلى المصنع، باتت واثقة من أنها ستغوي جميل الساعي، وستأخذه إليها في أقرب فرصة، حتى وإن اضطرت للتلكؤ بعد ورديتها ـ اليوم هي تعمل في وردية الصباح ـ انتظارًا لقدومه مع عاملي الوردية الثانية. خيالاتها تبددت قرب بوابة المصنع الخارجية.. ما لاحظته في البدء كان تكدس زميلاتها أمام البوابة، بينهن وجوه مكفهرة، وأعين باكية. لاحظت تاليًا طابور سيارات الإسعاف، والمحفات التي تخرج متوالية عبر البوابة، عليها أجساد مغطاة بملاءات بيضاء ملأها اللون الأحمر. الصمت خيم لحظتها حتى على صوت رياح الصباح البارد. ارتجفت شادية وهي تكرر بلا توقف، بحثا عن إجابة لم ولن تأت:

ـ إيه إللي حصل؟

عبر البوابة، كان يمكنها أن ترى السيارة الفارهة لصاحب الشركة؛ تعرف تلك السيارة، وتعرف جيدًا مقعدها الخلفي، الذي مرت عليه بتجربة غير مكتملة مع صاحب الشركة، وقتما كانت لم تزل تشغل رأسها توهمات العذرية. كان بابها الأمامي مفتوحًا، وهو بادٍ بداخله ورأسه ساقط في كفيه المبسوطين. شعرت تجاهه بتعاطف، وهي تتأمل الدخان الذي لم يزل يتصاعد كثيفا من البناء المحترق. ما لم تعرفه، أن الحزن الغالب عليه لم يكن لفقدان مصنعه وميراث آبائه، وإنما كان لفقدان من يموله بالمنشطات، في وقت هو في أمس الحاجة إليه؛ تمامًا كما تبلور حزنها لحظتها في فكرة ضياع فرص لقاء قريب مع جميل الساعي. دمعت عيناها، تلقت لمسة تعاطف من زميلة لها لذراعها، وتسمرت

fb/mashro3pdf

تابع حديثًا بعيدًا لا تسمعه بين ضابط شرطة وحمادة السلطان، الذي لم يتغير هدوء ملامحه، وكأن ما حدث لا يعنيه، ورأسها لم يزل مشتعلاً بخيالات عن جميل الساعي.

ما لا تعلمه شادية، وما لن تعلمه طوال ما بقي من حياتها ـ لأن المصنع سيغلق أبوابه نهائيًا ـ أن جميل الساعي لم يستيقظ من نومه هذا الصباح، فقد وجدته زوجته ميتا وعلى وجهه ابتسامة رضا، بعد ليلة طويلة ضاجعها فيها كما لم يفعل من قبل.

fb/mashro3pdf

وردية فراولة

رواية

أحمد اللواني

. . . .

أنهى جملته. وافرغ في فمه ما بقي من كوب الشاي، بعدها ارتجف جسده لثانية. وشهق وأسبل عينيه وكأنما الروح تغادره. ثم قال:

- سيأتيكم في زمن الدم نبي. وجهه كصفحة ماء تبصرون فيها أرواحكم. لا يتبعه منكم إلا الناجون، وينكره من استعصم بخيالاته. وظن في نفسه قوة بغير اتصال بمدد النبي. حتى يهلك على كفره. وتسود الأرض لنبي الله. يعلم الناس شريعة القوة.

fb/mashro3pdf